

الكتاب العربي السعودي ٤٢

سعد البواردي



الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم



النـاشـر
تهـامـة
جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤



الكجا

[« إلى الكجا » ... إلى المجنون الذي أعجبت بروحه.. بسموّه.. إلى ذلك الصديق الذي أعجب به إنسان آخر.. إلى صديق –السباعي– في.. فلسفة الجن.. وإلى صديقي في فلسفة المجانين–]

هذا «الكجا».. هل عرفته؟ إنه المخلوق الذي انصبت عليه شقاوة البشر، جنون البشر- فمد في الفضاء يديه يطلب الغفران لمن ناصبوه العداء. ليعيد للأذهان صوراً من الحقيقة- بنغمات من الوجدان الحي- ولكن -آه- لقد قسا الجناة عليه دون أن يرحموه -ظلموه- صاحوا من حوله، صفقوا من خلفه بكل ما يملكون -وصفوه بالجنون- وما كان بالمجنون- لقد راح يضحك بملء شدقيه -يملأ كل وجه بسمة عريضة- جملة عريضة فيها غموض الفلسفة -وهدوء الوقار- وخفقات التأثر- وبسمة المظلوم الصابر. هذا هو «الكجا» ذلك المظلوم المتحرك المملوء فلسفة وعقلاً وحبًّا!.. لقد أحببته -ومتى وجد ذلك الحب طريقاً إلى قلبي؟! لقد أحببته- بعد أن وصفه الناس، جمهرة الناس بالجنون!! لقد أدركت سر نفسه- لقد ألفيت المقاييس الكبيرة لنبضات خياله وأحلامه تتحرك وتقفز حتى لتكاد تنفجر.

لقد عرفت سر عظمة الإنسان..

هذا «الكجا».

هذا الدرويش الرث الثياب- العاري القدمين- المهدل الشعر- هذه الصورة للإنسان البدائي الأول، أيام كان يعيش في جوّ تحكمه رهبة الضمير-

وعظمة الإنسان الساذج البريء.. وصفاء الطبيعة الوادعة الحالمة، ووسوسة النسيم الرافق الحبيب...

هذا «الكجا» لقد نبع في أعماقي بالأمس -نبع في أحاسيسه، في جنونه!! في سخريته وفي حبه- في انفراده.. ثم ألفيته يزاحمني حول كل طريق- يقاسمني كل نبرة، و يرتشف من فوق خدي دموع الحيرة البلهاء- الحيرة الكبيرة من جنون الإنسان. هذا «الكجا» لقد ألفيته يشق في ذهني طريق التفسير والقول، طريق المحاكاة والتأمل.. بل و يزحف ليقتلع جذور الشك.. وهمهمة الأغبياء.. لقد ألفيته القوة التي تنبع من عمق الفهم لتعبر في سخرية الهدوء عن واقع مريض يئن فوق فراش كبير لا نهاية له، فراش الأرض..

هذا - «الكجا»- الزاحف على قدميه في دنيا العراء.. الصادح بأغنية قديمة طالما رددتها الريح وألقت بها من حول المضاجع المهدمة السادرة في فضاء الاتكال والحب المريض. إن ذاته التفسير للنشيد التافه الضارب في رحاب الفضاء.. النشيد الذي يرجع في بقاء وشوق: (لا حب إن لم تنس نفسك..)

هذا «الكجا» صاحب العمامة الكبيرة.. المسكين الذي تميزه البسمة -الترحم- والهمس- ثم ضرب الأرض في ثقة الأحياء حين يخطو -هذا «الكجا» كلفت لأبحث عنه- لا لأنه شريد أفرده الواقع، ولا لأنه وحيد شردته الحياة- ولا لأنه غريب امتلأت في نفسه صور مريعة وقاسية- ولا لأنه يبحث له عن ظل يمدد في رحابه جسده ففشل.. ولا لأنه ينشر الكلام من بين شفتيه في سخاء الأغنياء -وفي قوة الحق- وفي تفكير الفلاسفة فقط، ولكن لأنه الصورة الكبرى، الصورة للإنسان الذي زحمته مناكب الشر فاتكأ، اتكأ ولم يسقط -ولم يتألم- وإنما ترحّم على صانعي الشر- على القيود التي صنعها الإنسان؟! هذا «الكجا» -المجنون- والعاقل الهادىء الثائر.. والبعيد..

القريب، هذا الغريب الحبيب الذي يمنحك البسمة بلا حساب- و يسوق إليك التحية في معناها الواحد- هذا الإنسان الذي سخرت منه الملايين، قرت به السجون.. ووجد في كل طريق سياطاً تؤذيه- وقسوة تصرخ في وجهه- وسخرية تتسابق إلى أذنيه- وزراية تتلاحق كالظل. هذا التائه- المسكين المندفع وراء عجلة الأعوام- هذا الجبار المتمدد على مجاديف الخطيئة- هذا الوادع الذي أفرغت الحياة في أذنيه- وفي قلبه- أفكارها- وحبها- إنه ذلك الصدى الحبيب الذي ملأ من حوله ألوفاً من صور- من حياة البشر.. من لهيب النار- ومن صقيع الجليد- ومن دفء العاطفة، ومن ومضات النجوم- ومن تقطيبة الدجى- ومن معاني الألم- من ألوان الحقيقة الكبرى- الحياة الرهيبة المتضاربة.

هذا «الكجا» الذي يعيش في رحاب العقل- و يوسد رأسه الكبير فوق صخرة صماء- إنه (الموسوعة) الطاقة التي تهب الحقيقة، تعطي في ذلك فلسفة الإنسان الأول، الفلسفة الهادئة الوقورة المشبعة بالحقيقة..

إنه المرآة التي ستعكس المرئيات بما فيها من جمال- بما تحويه من جلال- وظلال- ودموع- إنه الشاشة- إنه الصور المتحركة- إنه الصدى الذي يملأ أذنيك بألف نغمة ونغمة، إنه الحقيقة ولكن لعقلاء البشر- لعقلائهم فقط دون المجانين..

أطل عمره يا رب، فما أحوجنا للعقلاء أمثال هذا المجنون!!.. الهادىء.



المزرعة الرهيبة

صديقي «الكجا»:

بين الأمل، وبين الألم يولد الإنسان، يترعرع، يشب، ثم يشيخ، فيموت، وتلك هي الحياة، مبدأ غامض، صورة باهتة وإطارها أخّاذ، أما حواشيها فقاتمة تسلمك إلى الخوف، إلى الملل، وإلى الضجر.

وحياة البشرية يا صديقي «الكجا» تلك الحياة العائمة، الهائمة، الضاربة في متاهات الزمن الموحش، إن هي إلا تجسيد للصراع المحتدم بين قوى الخير، وقوى الشر. بين الفضيلة والرذيلة، بين مجرى الضياء، وبين مهاوي الظلام.

والحياة بما تحوي من خير وشر، مزرعة كبرى، تغرس، وتنمّى، ثم تحصد، ثم تستهلك ذلك الحصاد، تطويه في أعماقها إلا ما نشره ذلك الحصاد من أريج، ومن أنفاس، سرى بها النسيم، وتشبع بها الأفق، وحملها البقاء فوق أكتافه العراض ليلقي بها حول أنف التاريخ!.

إن الحياة مزرعة، فلاحها القدر، اما مجاريها فأيام الزمن، أما بذورها فأرواح البشر، أما ماؤها فالقيم التي شرعتها السماء، المبادىء التي سنتها العدالة، دلت الناس عليها، والناس بين قويم، وبين منحرف.

بين إيمان، وبين شك.

بين إيجاب، وبين سلب.!

والشيطان يا صديقي «الكجا»، ما أبعده وأقساه، إنه يقتنص الفرص، إنه يلعب بالرؤوس، إنه يعكس الحقائق، إنه يخدع!، إنه يزرع الشكوك، الأنانية، حب (الأنا).

والبشرية الهائمة في متاهاتها مجبولة على عبادة الذات، الأطماع الفردية، المصلحة الخاصة!

وحول ركن الذات، حول الأطماع، أمام محراب الجشع يتحقق اللقاء..
الإنسان!! والشيطان، وما أقسى مثل هذا اللقاء، ما أمرَّه!
وللذات نداء صارخ رهيب يا صديقي «الكجا»، نداء يهز الأعصاب، ويثير الحقد، ويشعل الدنيا بلهب الدمار والفناء، والخطر، يدفنها تحت الرماد الأسود!

لقد خلقنا الله إخواناً، نستظل بالإخاء، بالحب، وباللقاء، وبالتجاوب الرحيم بين القلوب، ولكن أطماع الإنسان، ولكن لقاء الإنسان مع الشيطان حول محراب الجشع والأطماع الصارخة أدمت كبرياء الفضيلة، أثارت الأحقاد، أراقت الدماء، وألقت بملايين الجثث البريئة طعمة للسباع، طعمة الضياع المجنون، طعمة الرغبة الرعناء، الرغبة التي باركها الشيطان، ونفذها الإنسان، كان لها الأداة الطيّعة المسكينة!

أين هو المبدأ؟!

أين تكون العدالة؟!

أين هي الرحمة؟!

وأين يكون العقل؟!

ولا شيء يجيبك سوى همهمة من فم الأقدار، من نشيج الفضاء الحزين، وهو يلقي على أذنيك وسوسة غامضة مبهمة تحمل سر الحقيقة، معنى السلام الذي كفر به الإنسان، ومعنى الحب الذي ركله الإنسان بقدميه، ركله، وركله معه الشيطان وكان يبارك له الانتصار.. على الأرواح، على الدماء، على الجثث، على الآمال التي حطمتها قسوة الذات فتلاشت في ضباب اليأس تلعن الإنسان، تلعن الإنسان الظميء الجائع المتعطش للدماء، تلعن الشيطان الأكبر أو الأصغر، تلعنها معاً!

ورغم مرارة الموت، ورغم صرخة الدماء، ورغم رهبة الجثة الجامدة الصفراء الموسدة التراب، رغم الفناء الرهيب المرعب!! ما حاول الإنسان مرة أن يقبر ذاته في محيط المجموعة البشرية، في أفق المجتمع السليم المتعانق في أجواء اشتراكية حالمة تنعم بالحب، بالإيثار، بالوئام، وبالسلام!.

لقد عاشت معه أنانيته الهوجاء تذكّي في أعماقه حب السيطرة، رغبة الاستعباد، تشدّه إلى لهيب النار. والأنانية ـقاتلها اللهـ لا تعترف بالنور، إلا من خلال أفواه المدافع وضباب الانفجارات المروّعة من أدوات الدمار، والإبادة، والموت!.

لقد زرع الشر، زرعه بيديه، بجنونه، ثم رعاه بدماء الأبرياء، وبالأطلال الخربة الصامتة التي تثقل جبين الأرض بالركوع الحزين الطويل!.

هذا هو الإنسان الذي صنع (المدنيات!) خلق معجزة القرون كما يطلق على ذلك تاريخ العقلاء!! لقد بنى بأمجاده، بذكائه، وبمفاهيمه الكبيرة برجاً سامقاً على منكب الأرض لإجراء تجاربه «الذرية» و«النووية» تقبر ما صنعته الأجيال الطويلة من تاريخ، من كفاح في سبيل البقاء!.

وأين هو العقل؟! أين هو ذلك الجبار الذي سيطر على الطبيعة، وقبض على السلطة في هذا الكوكب الفسيح؟ بما صنع من قوى، وبما أوجد من عناصر تحمل مستقبل القافلة التي تسير على دروب الحياة؟!

أين هو ذلك العقل؟!

ألا يستطيع السيطرة على جنونه؟! على مهازله الكبيرة؟! أم أنه فقط اكتفى، اكتفى بالسيطرة على إيحاءات عقله، على كبتها، على إحراقها في لهيب النار التي أشعلها لمستقبل البشرية؟! ثم نام، نام على أنغام مزمار العاطفة، دون عقل.

اللهم ارحم هذا الإنسان، الإنسان المسكين التائه، خذ بيده يا رب، لتهتف معي يا صديقي «الكجا» لتدع لهذا الإنسان باليقظة، اليقظة من سدارته

الطويلة، من جنونه، ولنردد في جب ما قال شاعر الهند وفيلسوفها العظيم، «رابندرناتاغور» وكان يناجي أباه، يناديه بعقله فقط! عقله المجرد من كل أنانية وذات: (حيث العقل لا يخاف، والرأس مرفوع عال، حيث المعرفة الحرة، حيث العالم لم تمزجه جدران التعصب، حيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة، حيث تجد المحاولة التي تمد ذراعيها إلى الكمال، حيث لا يفقد جدول العقل مجراه إلى صحراء التقاليد المميتة، حيث العقل في تقدم دائم نحو ساحات أفسح، في الفكر والعمل، تحت هذه السماء من الحرية يا أبت دع وطني يصح !).

وإلى عودة أخرى معك أيها الحبيب.. إلى فلسفة المجانين أيها المجنون، حيث ألتقي بك في زحام الندوة الحبيبة، لأحكي لك خاطرة مجنون، خاطرة جديدة!.



البصيرة التي لا تبصر

صديقي «الكجا»!

ما أقسى المنطق حين يتجرد الإنسان من منظار عقله.

ما أقسانا حين نتحدث، ثم ما أقسانا حين نحب وحين نكره، وحين نختار.

إن دافعاً من الوجدان لن يكون أبداً لنا بمقياس، إننا نحب لغرض، ونقلي لغرض، وما أسرع ما نحب، وما أسرع ما نبغض، ثم ما أسرع ما نتقرب إلى فرد كنا بالأمس لا ننظر إليه، نزدر يه ونكيل عند ذكر اسمه كل سباب وشتائم!.

إنها الصدف يا صديقي «الكجا» الصدف فقط التي تدفعنا وراء الحب، بلا مثل، و بلا مبدأ، بلا غر يزة مستأصلة في أعماق الإنسان!

كم هو منطق ساخر ذليل هذا الذي نملأ به الفضاء في مديح تارة، في هجاء تارة، ثم في شكوك تارة أخرى.

المنطق الذي لا عمق له، وإنما تجمعه، وإنما تكوّنه ظروف الساعة التي يحياها لتبني جذوره، لتصنع ألفاظه، ثم لتقذف به نحو آذان الناس في صفاقة هوجاء منتنة!

حسبنا يا «كجا» أن نستحي من السماء، أن تخجلنا الضمائر، وأن نزدري المراوغة التي بذرت في أعماقنا البلبلة والرعشة، والاستهانة بسرد الحقيقة.

أمِنْ قولك لعدوك إنك كرهته لكذا ما يزعج المبدأ، سيما وعدوك لا تجهله الحقيقة؟! أو تجهله!

قد تقول: إنه (تصنّع) إنه ضرب من السياسة التي توجّه قافلة البشر ية اليوم، وقد تقول: إنه المجاملة، ولكني أقول لك إنه الكفران بالحقيقة، إنه الازدراء بالدوافع الأصيلة التي تؤمن بها ولكنك قبرت أصداءها في نفسك!، إن

عليك أن تقول الحق! ثم أمِنْ قولك لعدوك مرة أخرى: إنك صديق (ما يدين به ذلك العدو) وما يتقبله، وهو يدري عنك، عن قلاك له، ربما ما لا تدر يه أنت؟!

والأهم من هذا يا صديقي «الكجا» هذه النظرة المقيدة الذليلة التي يشفعها الإحتقار المر. النظرة للفقير الذي جردته الحياة من أوضار المادة، و بان في أعيننا نصف إنسان، بل وأقل من نصف إنسان!

فقير!! يالله!!

لكم التقينا به وكان يسحب أذيال فقره، أسماله الممزقة المهلهلة، بدأنا السلام، ولكن، السلام!! ومن فقير! آه، إنه سلام لا يجزىء، لا يستحق الرد!.

وحين يطمع منّا في كلمة، حين يتقدم إلينا بسؤال، لا نملك إلا إشاحة وجوهنا عنه! الازورار عنه، ثم إهانته بالصمت، إنه فقير، والفقير نصف إنسان أو أقل من نصف إنسان! يا «كجا» هكذا نتمثله.

إن روح الإنسان كما نراها بمجهرنا المزيف، بمنظارنا الأسود، هي ذلك الحطام من المال الذي تحويه خزينة الإنسان فقط. أما أخلاق الرجل، أما خلال الرجل، وأما عقل الرجل، فهذا كله شيء تافه، تافه في نظرنا لا يملأ الكفّة الأخرى لميزان الإنسان!

سبحان الله! ما أقوى البصر! ولكن ما أشد عمى البصيرة يا «كجا»

إن كفّة الخير التي تمثل المخلوق في معنويته، في عظمته، لا وجود لها أمام كفّة (المال) أمام (أوضار المادة)! لقد عرفنا الإنسان فقط، عرفناه بالمال، للمصلحة التي سنكسبها منه، وقد لا نكسبها منه، وقد لا نتذوق لها طعماً!

انظر يا صديقي «الكجا» انظر إلى الحياة، ثم اسأل الألوف من الناس ثم قل ما شئت، إنك ستتحيّر، ستملأ أذنيك رعباً بما سيتناهى إليك من حقائق مرّة!.

أعرفهم أيها الحبيب، لقد كانوا أغنياء الأمس، لقد ركع الحظ تحت أقدامهم، وكم مع الحظ من أصدقاء أيضاً ركعوا أمام الأقدار!.

أولئك الأغنياء يا «كجا» لقد كان فيهم الرجال، كانوا عمالقة الخير، البر، والصلاح، كانوا بناة حاضرهم.

ولكن، ما أروع الظروف، إنها لا تخلص لأحد، لقد جردتهم الحياة من كل ما يملكون، إلا من الخير، ومن البر، والإصلاح. لقد جردتهم فقط من المال، فهل ظل أولئك الأصدقاء أوفياء للخير، وللبر وللإصلاح!؟

و يح الإنسان! كم اختار المال على الفضيلة، تهالك حول غبار المادة، وأدار ظهره حتى لا يبصر شموع المصلين!

هذه بعض الحقائق «يا كجا»، بعضها فقط، وكم ستضحكك وتبكيك حقيقة أخرى، حقيقة من الواقع، من صميمه، إنها ستطالعك في كل مكان.

أتدري بماذا يصف الناس ذلك الإنسان الهادىء الوقور الذي لا يؤذي من الناس أحداً؟!

ثم أتدري ماذا يقول الناس عن ذلك السليم القلب، الصافي السر يرة، الذي يضحك لك حين تبكيه، و يستغفر لك حين تؤذيه، و يدير لك خده الأيسر وقد ملأت خده الأيمن شقوقاً وأذى؟!

إنه في نظر الناس يا «كجا» (سقيم) ناقص عقل، ومعتوه! هذا هو المنطق الذي يثقل أسماع البشر، وتأنف منه السماء!. المنطق الذي ننصت له وكأن على رؤوسنا الطير!.

إنها النزعة المر يضة الكامنة في أغوار الإنسان، تلك هي الخيوط التي تشدنا إلى من نخافه، تشدنا إليه في طاعة وفي عدم طاعة، في حب وفي غير حب.

أما ذلك المعدم، وأما ذلك البريء الطاهر، فما أحرانا أن نكون له أداة ساخرة تهزأ منه، وتصفق عليه.

تلك هي النزعة المر يضة التي يكتّفها الخوف، والطمع، لا الحب، إنها تصور أحلامنا المز يفة في خطوط مصطنعة براقة، ولكنها السراب الذي لا يطفىء جذوة من عقل، ولا لهيباً من مبدأ!

ترى إلى أي مدى سنندفع ونسير وراء قافلة المادة والعاطفة ؟!

ألم يكن للإنسانية من سبل إلا هذا السبيل ؟!

أين هو العقل؟! ثم أين هي الإرادة؟ ثم أين هو ذلك الكائن الذي يستطيع أن يقول على مسمع من الناس:

(قفوا، من هاهنا يجب أن نسير، وبهذه اللّبِنَات يجب أن نبني مجتمعنا البشريّ الصالح).

يقولها بعقله، يتطلع إليها بمنظاره الأبيض الشفّاف الذي يجسد الحقائق، و يضاعف في صور الحقيقة، و ينتصر للروح، ينتصر لها أمام جحافل النفعية واللزومية والمهرجين.

اللهم نصرتك للعقل فهو أقدس ما منحته لخلقك، قل: (آمين) يا «كجا»، وعود حميد إليك بإذن الله.



أغنياء.. أغبياء

صديقي «الكجا»!

اصدقني ؟!

هل كنت تاجراً يوماً من أيام عمرك.؟ هل جمعت في حوزتك المال بتلك الكيفية والأساليب التي يطبّقها إخوتنا الأغنياء هنا، هنا في هذه البلاد؟

إخوتنا الأغنياء، أو الأغبياء كما يجب أن يطلق على كثير منهم ؟!

اصدقني يا «كجا»، قل لي شيئاً عن مرحلة الأتعاب المتوالية التي واكبتك وأنت تملأ خزانتك بالنقود، وتملأ عينك ووجهك بغبار الطريق!.

إن في صمتك. وفي سحنتك الوادعة العميقة، وفي خطوطك الصفراء الباهتة الجعْدَة الغور ما يوحي بأنك لم تتذوق عمرك طعم الشبع بل الغنى، لقد رأف بنا ذلك الفقر. لقد صافحنا، عانقنا. لقد اختارنا حتى لا نحرق سعادتنا، قوانا، وطمأنينتنا في لهيب السباق التائه الشارد، السباق لاقتناص المادة، لكم رأفت بي وبك الحياة إذ كنا فقراء. وقد يقولون عني: (إنني إنسان فاشل حاول أن يغطي فشله فالتجأ إلى تشويه المادة، إلى امتداح الفقر).

وقد يتذكر الكثير من القراء حكاية الثعلب الذي حاول تسلق شجرة العنب لاقتناص عنقود يتدلى في شبع، وحينما أعيته قواه جر قدميه في تململ وتصنع وكان يتمتم:

(عنب حامض لا يصلح).

قد يرى كثير من القراء في هذه الحكاية ما يذكرهم بفلسفة المجانين. أعني رأيي الذي أعنيك به يا «كجا». ولكن تمهل، ولتنصت إلي، ثم لتحكم على

هذه (الفلسفة) العجيبة، ثم لتقل رأيك فيها كقارىء. كإخوتنا القراء، إنكم أحرار فيما تقولون! هناك يا «كجا» كلمة موجزة فيها عمق تقول:

(الثروة أن يخدمك المال، لا أن تخدم المال).

هذا شيء صحيح، شيء لا يحوجنا إلى دليل، إلى أخذ رأي أحد! فلنطبق هذا المثل بحذافيره، لنطبقه بالنسبة لأغنيائنا، ثم لننظر أكان هناك وفاق بين ما نعتقد وبين ما نعمل؟

أتُنصت إليّ قليلاً؟

« أفي مقدورك يا «كجا» أن تدلني على غني واحد فقط أدرك في يقين لماذا يحوي المال، أدرك الواجب فيه، أدرك المطلوب منه من المال، ثم عمل على ضوء من يقينه ومن فهمه؟ قل لي إن تاجراً في كذا عاش سعيداً بماله، خدمته تلك الثروة، لم تحرق أفكاره ولم تجمد شفتيه. ولم تسلبه لذة النوم. ومتعة اليقظة.؟ ولم تسلّمه للمتاعب.؟ قل لي إن تاجراً في كذا لم يخدعه ما جمع. لم يمنعه من أن يقيم المشاريع، يدعم اقتصاد وطنه، يسد عوز إخوانه، وفيما قلت جميعه المنفعة كل المنفعة، والخير كل الخير له.

قل لي يا «كجا»، إن تاجراً في كذا فرّق بين مسؤولية المال، وبين مسؤولية الروح والجسم، لم تستغرق أنفاسه اللاهثة المبهورة كل ساعات نهاره، بل ومعظم ساعات ليله، إن لم يكن جميعها؟!.

إنك لن تذكر لي أحداً، إنك ستجدُّ، ستطرق. ستحرق خيالك بالتفكير الطويل، ولن تجد ممن عنيت ما تملأ منه صفحة الجواب، إنك لن تجد أحداً.

إنهم ألوف، وأعني بالألوف أولئك الذين يهيمن الفرد منهم على عشرات الملايين؟! أين هو ذلك الفرد الذي بنى بما يملك مصنعاً، أو شاد ملجأ، واستغل طاقته المادية في خلق نتاج يسد حاجة البلاد، يغنيها، بل وينقذها من ويلات شركات الاحتكار الأجنبية التي لا ترحم!؟.

أين هو التصنيع يا «كجا»؟ ونحن في زمن توافرت فيه عناصر القوة، ومقومات النجاح، المادة والثروات الهائلة (الخام) التي تتنفس تحت أقدامنا في ضيق وتبرّم، في انتظار من ينتشلها من مقبرة الأرض، والأيدي العاملة، وما أكثرها، وما أيسرها، وما أقدرها على أن تبني بسواعدها المفتولة وقائع مجد مجيد في عالم الإنماء والاستثمار والتطوير.

ثم أين هي الثقة بين غني وآخر؟. أين هي الجمعيات التعاونية؟ أين هي المؤسسات الشعبية الموحدة التي تربط بينها وبين المصالح، وعناصر الثقة؟!

إنك لن تلقى إلا الفراغ، إلا الصمت القاتل، وإلا التهالك حول مصلحة الفرد، ثم شد تلك المصلحة بخيط وثيق متين، ثم إقحامه في أكثر من خزانة حديدية، حتى لا يرى الشمس.

هكذا فهمنا أيها الحبيب معنى (الثروة) تكديساً للأوراق، احتكاراً للأسواق. ثم تعلقاً صارخاً بأذيال الغزو الجنوني لجيوب الناس، دون ضمير، ودون شرف، ودون حياء.

تجده في الثمانين من عمره يلهث كالمسعور، إذ لا ينام، لا يستقر على مائدة طعام، لا تهنأ به أسرته وأطفاله، وإنما في إطراقة ووجوم، وفي هرولة لا تنقطع لها خُطا، لقد نسي نفسه، نسي سعادته التي جمع من أجلها المال فشقى.. نسي أطفاله، ثم نسي أنه على بعد خطوات فقط من قبره، إنه في حاجة إلى أن يهدأ. أن يسعد، وأن يستظل بظلال الثروة التي استهلكت من عمره الأعوام الطوال، لقد نسي أنه يطالبها بأن تجفف من جبينه عرق التعب، أن ترد إلى جفنيه إغفاءة الحلم اللذيذ، وأن تحمله على متنها مرغمة صاغرة!.

قل لي يا «كجا»: هل آمنت معي بصدق الحكاية، وبسلامة الرواية.؟! إنك لن تحتاج إلى كبير جهد أو تعب لتدلّل على صحة ما قلت، فقط إن عليك أن تحمل قدميك العاريتين، أن تودع كوخك الصامت لتقحم نفسك في عراك المدينة. أي مدينة، وسترى. أنك لن تحتاج إلى من يدلك على أرباب الملايين،

تطلع بعينك المفتوحة الواسعة، انظر إلى التجاعيد، إلى التقطيبة، إلى القسمات الكالحة الغبراء، إلى الشفاه الجافة، إلى السيقان المتناطحة المندفعة في جنون، إلى الأنفاس اللاهثة المحرقة.

إنها العلامات الفارقة التي تدلك على أرباب الملايين، أما أولئك الفقراء، وأما أولئك الذين يجدون فقط ما يسدّ عنهم العوز،فإن بسمة خفيفة تطالعك على وجه كل منهم، إنهم سعداء رغم ما يحسّون. وصدق الرسول حين قال: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»! وداعاً.



العيب ألاّ تحاول الصعود

صديقي « الكجا » !

يقول المثل : « ليس عيباً أن تزلّ قدمك فتسقط من القمة إلى الحضيض، إنما العيب أن تذهلك السقطة فتظل حيث أنت دون أن تحاول الصعود » !

هنا .. هنا في هذا المثل تتجلى لنا الحقيقة الممتلئة بجذورها و بتفرعاتها ، و بإيجابها و بسلبها ، بصعودها وبجمودها ، فما كان الإنسان بذلك المعصوم فلا يعتوره الخطأ ، وما كان الإنسان بذلك القويّ المتماسك القُوَى فلا يتطرق إليه ضعف ولا تخاذل ، فعظمة الإنسان جذوة تتراقص في محيط الزمن فتشع تارة ، ثم تخبو أخرى ليمتد لسانها من جديد، وإحساس المرء يا صديقي « الكجا » بقدرته على أن يخلق كيان وجوده المعنوي هو إحساسه في أن يتعلق بأسباب الصعود والارتقاء ، ثم مواراة الفشل ، الانزواء في عالم أشل لا حراك فيه .

والعقل الجبار يرسم الخُطَا لعبر التاريخ ، يرسمها بما تحو يه من مفاوز، من حفر، من صخور، ومن آلام ، وحين يقع في تلك الحفر، وحين يرتطم بتلك الصخور إنما هي طريقه إلى الكسب ، إلى الهدف ، فهي لن تنال من إيمانه، وهي لن تحدّ من قُواه ، وهي لن تنشر في نفسه سموم الشك ، ولا غيوم الحيرة ، فقد كانت له على بال ، لقد رسمها لعبر تاريخه كزلفة من الزلفات الموصلة إليه . والعقل الجبار يا « كجا » هو ذلك الذي ينتفع بالفشل ، يأخذ منه الدروس لمستقبله ، و يأخذ منه الحيطة والحذر عندما يخطو من جديد.

وما عرفت البشرية إنساناً جمع في حياته أطراف الانتصارات والصعود فقط دون أن يتعرض إلى هزيمة، وإلى فشل، ولكن العظيم هو ذلك الذي لا يبهره الانتصار، كما لا يقهره الفشل، هو ذلك الذي حين يهوى من السّلّم يلتمس لصعوده طريقاً جديداً أقوى وأدعى إلى الطمأنينة والثقة والارتقاء.

وما أولئك الذين تذوب قواهم، وتتجمد أطرافهم عندما يفشلون إلا ضعاف العقول الذين فاتتهم فلسفة الحياة، وخُطا الحياة، فارتطموا بمفاهيمهم المبتورة العمياء، وانكفؤوا يندبون حظوظهم وماضي أيامهم.

إن العبرة ليس أن نعيش، ولكن العبرة أن نعرف سبل العيش والبقاء، أن نتعانق مع الانتصار ومع الهزيمة، مع الصعود ومع الانحدار، ولكن في سبيل الانتصار وفي سبيل الصعود فقط.

أعرفه يا صديقي «الكجا» لقد كان ثريًّا كبيراً، يحوي في خزانته مئات الألوف من النقود، لقد ضمها إليه من كدّه وكدحه، لم يأخذها عن ميراث، ولم يجمعها عن طريق محرّم!. إذ لو تحدثت تلك النقود لأحصت لك أنفاسه وخطاه وعرق جبينه منذ أيام شبابه! وشاء القدر أن يصاب بنكسة في ماله، فلم يعد يضم في خزانته إلا الفراغ وإلا الإيمان والثقة بكسب المستقبل من جديد.

ولم تمت في جوانح ذلك الرجل رغبته، ولا قواه، لقد أحس أنه هَوَى من القمة إلى الحضيض، فبعد أن كان سيد القوم جاهاً ووجاهة وجمعاً كان ذلك المعدم لا يلتفت إليه أحد.

ولكنه أمسك بعقله، ومن أمسك بالعقل يا «كجا» لم يفته شيء، لقد عقد الخنصر والبنصر، ثم فكر. ألم يكن هو ذلك الفقير، الفقير منذ عشرين عاماً؟! وابتسم، ابتسم عقله الكبير، فهو ما برح حيًّا، وطرق العيش، وأبواب الرزق ما برحت مفتوحة لكل من يسعى إليها، وتناسى ماضيه

الغني، وراح يصعد السلم من أولى درجاته، لقد ألفى نفسه تقفز درجة درجة دون أن يكل ويمل. لقد بدأ مراحل سعيه خادماً بمرتب زهيد، ثم صاحب حانوت متواضع بدأ يفتح ذراعيه اتساعاً وشيوعاً، ولم تكن غير أعوام مضت حتى بزغ نجمه من جديد، حتى كان هو ذلك الغني صاحب الجاه والوجاهة والذي يخطب الناس له الود والتقرب إليه.

ومثله مئات الناس وألوف الناس يا «كجا» في كل الميادين، ليس في التجارة فحسب، بل وفي السياسة، في العراك، وفي كل ضرب من ضروب سعينا وكفاحنا! فأين من الناس اليقين؟ وأين من الناس (الثقة والاعتداد بالنفس يا كجا؟» إن فينا الفرد —وما أكثرهم من أفراد— تموت في نفسه دوافع السعي والمقاومة، يلتجىء إلى حيرة لا تكاد تنتهي كلما ألمّت به نازلة، وكلما تطلع إلى أنقاض عشه وقد التهمتها حروق الزمن، فأتت على الأخضر فيها واليابس، وكأن مواصلة السعي من جديد، وكأن بناء عش جديد و بأعواد جديدة قوامها العمل والكسب لا يجدي.

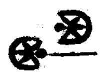
إن تاريخ الإنسان كالصرح الشامخ لا تقيمه لبنة واحدة، ولا جهد ساعة، إنه تاريخ ذو مراحل متعددة يستغرق من الزمن أطوله، ومن اللبنات أكثرها، وما أسرع ما ينهار ذلك التاريخ، وما أسرع ما يشاد من جديد في دعامة أقوى، وفي مظهر أبدع. والعقيدة ثم الثقة، ثم العمل، تلك هي الأثافي الثلاث التي ينتصب عليها البناء الثابت القوي الذي لا يتزعزع أو يموت!.

وبعد، يا صديقي «الكجا» ألسنا معنيين بألّا تذهلنا السقطة؟ وما دمنا نملك السعي، وما دمنا نملك الوقت الكافي من الزمن، بل وما دمنا نملك أكثر مما يملكه غيرنا من العناصر التي تضمن النجاح أو تكاد، لم بتنا حيارى ودرجات السلم تلوح، وتلوح، وتدعونا إلى أن نصعد، إلى أن نتربع على عرش الذروة؟ إن الطريق مفتوح، والسبل واضحة المعالم، ولكن جهودنا ما

أسرع ما تتخاذل وتنهار حين تصطدم بعارض ولو هزيل صغير لا خطر منه، فالحياة كما عرفناها ذلك الطريق الرحب الممتد الأطراف، المعبَّد السبل، المفروش بالأزهار والرياحين!.

نعم هكذا عرفنا الحياة يا «كجا» نسينا أن نذكر، أن ندرك الزاوية الكبرى، الجانب المهم من جوانب الحياة، نسينا أن نتعرف مواضع الصخور، والحفر، ونسينا أن ندرك أن الحياة طود سامق شاهق يحوجنا إلى بذل الكبير من القوى للتغلب عليه، لقهره للتربع على قمته.

ونسينا يا «كجا» أن ندرك شيئاً آخر هو أنه لابد لصاعد الجبل من عثرة، من زلّة قدم، ومن توقف، وبالغ الذروة من تضطره العثرة إلى متابعة السعي، إلى الإصرار على ألاّ يقف أمام صخرة اعترضت طريقه، ألاّ يتخاذل، وأن يدفع بمطيته إلى طي الطريق في ثبات وثقة، نعم يا «كجا» في ثبات وثقة، فليس العيب أن تزلّ أقدامنا فنسقط، وإنما العيب كل العيب ألاّ نحاول الصعود مرة ثانية من حيث سقطنا، أما بلوغ النهاية فأمر تقرره الأقدار وحدها، الأقدار يا «كجا» ووداعاً.



القدرة على تغيير الأخطاء

صديقي «الكجا»!

ارفع يديك نحو السماء، وردد معنا هذا الدعاء الذي رتّله «بيتر مارشال»: (يارب إن أخطأنا فامنحنا القدرة على التغيير، وإذا كنا على حق فأعنّا على أن نعيش مع الحق).

ما أروعه من دعاء يصور لي ولك جنبات الحق، زوايا الفضيلة، ودعامات البناء المنبثقة من العقل الملهم، ألا نتفكر؟! (يا رب إذا أخطأنا فامنحنا القدرة على التغيير) التغيير لذلك الخطأ، إزالته، ومحوه من عالم الناس، الانتصار للصواب، لإثبات الحق مكان الباطل، وللعمل على ألاّ يكون هناك باطل.

والسر هنا يا صديقي «الكجا» هنا في الكلمات البسيطة اللطيفة المملوءة معنى وعمقاً؟.

ترى أين تكون القدرة على تغيير الأخطاء؟! أعلى الناس فقط؟! أم على أنفسنا أيضاً؟! وأين هي حدود القدرة؟! وبأي لون يجب أن تطلع على الناس؟!.

(القدرة) أليست تعني بكل حرارة وجلاء القوة على نصرة الحق؟!. إنها القدرة، إنها الانتصار للحقيقة البيضاء، للواقع الذي جنى في حقه، وللحقوق التي أهدرت حول مذبح الرغبة والرهبة.

إنها القدرة، إنها إحلال السليم مكان المعتل، القويّ بدلاً من المنهوك، والصواب بدلاً من الخطأ.

تلك هي القدرة على تغيير الأخطاء، ولكن القدرة ما أعماها حين لا تنصف نفسها، حين تتجاهل أخطاءها لتفتح عينيها على أخطاء الناس، حين تقتص للحق من سواها وتأبى، تنسى أنها مطالبة بأن تخضع كغيرها لسلطان الحق.

فقوة التغيير يا «كجا» هي العنصر الأول من عناصر التطهير، ودرء الأخطار عن جسم المجتمع، فالأمة؛ ولن تكون له القوة ما لم يكن طوفاناً عادلاً يملأ جوف الأرض الظامئة بالماء، ويكتسح عن وجهها الحشائش، وما أوجدته الأيدي العابثة من رواسب وحجارة، وطحالب.

والقدرة يا صديقي «الكجا» هي ألاّ نتعدى أنفسنا إلى الغير، أن نبدأ بأخطائنا قبل أخطاء الناس، أن نصلح أنفسنا، وأن نمهد لغيرنا سبل الصلاح والتغيير:

فيد الإصلاح ما أنقاها وأقواها حين لا يقهرها التحيز، ويد الإصلاح ما أعتاها وأشقاها حين لا تبصر إلا من طرف واحد، ويد الإصلاح هي المقياس لعجلة السير، هي (المقياس) الذي يسجل مراحل الاندفاع، وخطا الاتجاه إلى دنيا جديدة من النمو وصقل الإهاب، والمواهب.

إن فينا أيها الحبيب من لا يتذوقون طعم الصراحة إلا في حدود، وإن فينا أيها (المجنون)!! من يبحث عن المشاكل وراء ستار من حب الإصلاح، وإن فينا أيها «الصديق» من يخشى الحق، يخاف حين يقوله أن يفتقد رضاعه، أو أن يخسر متاعه، أو أن يسلمه الزمن إلى شكوى ووحدة، فيطرح قول الحق جانباً وهو يعلم العلم كله أنه خان الأمانة، وخادع مسؤولية السماء.

فإذاً القدرة على تغيير الأخطاء ليست يا «كجا» أن نرغى وأن نثور حين نحس بخطأ مقصود أو غير مقصود، والقدرة على تغيير الأخطاء ليس تشهيرنا بذلك المخطىء وتهويشنا من حوله، والقدرة على تغيير الأخطاء ليس أن نقابل الصياح بصياح، وإنما هي إيحاء حبيب هادىء نزيه نزجيه في رغبة إلى من

أخطأ، نشعره فيه بأنه إنسان غير معصوم، وبأننا جميعاً يجب أن نتحرى مناهج البناء الأصلح.

فروح الدعوة هي أن تكون على مقياس موحد في قوتها وهدوئها، في إنصافها للحقائق، وفي تحرّيها لسبل الخير، وفي معالجتها لوقائع الشر.

والتغيير للأخطاء، أيّ أخطاء، هو الإثبات الراسخ لجوهر الدعوة، ولحقيقة السموعن الدنايا، وعن التحامل وعكس المقاييس والأوضاع.

والعيش مع الحق يا «كجا» هو الرضا بذلك الحق، الإيمان به، وإثباته كدستور خالد مشروع، والحق، والإيمان بالحق هو إثبات لما فيه من الحقائق ولو على أنفسنا، هو أن نهزم في شخصياتنا ما لا يقره الحق، هو أن ننتصر للحق على أطماعنا، وعلى أوضارنا، وعلى تحاملنا وتجاهلنا أيضاً.

فالنصرة للحق ذات جناحين اثنين:

— تغيير الأخطاء.

— وإثبات الحقيقة البيضاء.

والحق كما قال رسول الإنسانية صلاة الله وسلامه عليه:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

هذا هو الحق، هو التغيير لروح الشر، للأخطاء، والإقرار لروح الخير، للصواب.

(. . . . . .)

وبعد، فما أروع الأمثلة التي ضربها لنا رسول البشرية محمد بن عبد الله صلاة الله وسلامه عليه حين قال:

«والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!.

ذلك هو الانتصار الكامل للحق، القدرة على التغيير في صالح البشرية وفي خدمتها، أي شيء أروع من أن يقسم الرسول النبي على القصاص من ابنته، من فلذة كبده، أخذ الحق منها قبل غيرها من الناس؟.

لعلّي أطلت عليك يا «كجا» بهذه الفلسفة، ولعلك — كما عهدتك وكما عودتني — لم تضق بها كما ضاقت بها صدور الواقع، فالحق حلو مرّ يا «كجا» لا يستسيغه كل الناس. ولا كل الذين يدركون، ولكن كل الذين يؤمنون بعدالة الدعوة، بتجردها عن كل حيف وتصنّع، عن كل نفاق أو مراوغة، تلك هي العقيدة الكبرى التي يزرعها الإيمان القوي النابض، الممتلىء علماً وفهماً وعملاً!.

ادع لنا يا «كجا» أن نكون من أولئك الذين علموا فعدلوا، وقالوا الحق ولو على أنفسهم. وإلى لقاء آخر أيها الحبيب.

العيد

صديقي «الكجا»!

أنت الآن في عامك الخمسين، أو تكاد، عمر طويل طويل تضج أيامه «بالأعياد!!» الأعياد التي تصافحنا في كل عام مرتين أو مرات، ياله من رصيد ضخم فخم يحوي مائة عيد بالتمام والكمال.

ولكن قل لي أيها الصديق: هل وعيت تلك الأعياد؟، هل عشتها؟ عشتها بروحك لا بقشورك ونكاتك؟! وهل تجاوبت فيها مع أماني العيد؟! هل انتصرت فيها للمعنوية؟ وهل نفعت تلك الأعياد «المائة» وما أكثرها —هل نفعت حياتك فذكرتك يوماً من الأيام بأنك يجب أن تقيم لروحك المهرجان، وللإنسانية الأفراح، وللغرس النامي طريق الري، وللبسمة المرحة سبيلها إلى الشفاه الحائرة؟!

مائة عيد في عمرك يا «كجا» ماذا صنعت من تلك الأعياد؟! وبماذا قضيتها؟! وهل تزودت منها بالسر، بالالتفاتة الحكيمة إلى زوايا المستضعفين الذين ملأوا من حولي وحولك كل مكان؟.

أي أعياد تلك المائة التي مرّت عليك يا «كجا» مرور اللئام لا مرور الكرام— فما نمت في وجهك إلا ابتسامة مصطنعة تخدع بها الناس، وما غرست في قلبك إلا فرحة مرتجلة توهم بها من حولك أنك في عيد، وما أضفت على كيانك إلا بُردا جديداً عتيقاً رحت تختال فيه وكأنما توهمت أنك ستخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولاً؟ أكانت هذه هي الأعياد التي انتصرت فيها الفرحة على الوجوم، الابتسامة على الدمعة، والانطلاق على الرسوب؟

ويحي ويحك يا «كجا» حين نخدع أنفسنا بمظهر لا يجدي، حين نرى في العيد تلك الظاهرة الكبيرة، تلك اللمحات التي ما تكاد تبتسم حتى تلفعها حقيقة التاريخ الأسود، تجتذبها فإذا بها في صمت ثقيل، في تقطيبة جامدة!.

ويحي وويحك يا «كجا» حين نرى في العيد تلك المواكب الزاحفة التي تثقل بأقدامها الأرض وهي تتعانق عناق الأموات، وتتراقص رقصات الثمالى. هاتفة ومرددة نغمتها التي لا تتبدل:

(عيدكم مبارك . عيد سعيد)

آه .. كم ظلمنا العيد يا «كجا»، ظلمناه بخداعنا؛ ثم بتقوّلنا عليه، ثم بإهمالنا الحقيقة، ثم بمباهاتنا بالتصنع، ثم بخديعتنا لأنفسنا أننا في عيد.

وما أكثر ما نظلم يا «كجا» وما أندر ما نتراجع عن الأخطاء.

اصغ إليّ بسمعك، ازجُرني بعقلك حين أخطىء، وسأغفر لك ما تقول، فأنت كأنا (مجنون!! ومجنون).

أي صديقي «الكجا».

هذه الأعياد !! وكم هي كثيرة في حياتي وحياتك وحياة كل الناس، ماذا فهمنا عنها؟ ألم تضاعف في آلام البؤساء حين لا يجدون الطعام، وحين لا يلتفت إليهم أحد. وحين تبهرهم مظاهر الموسرين وهي تتحدث عن فرحة عيد، ولبس جديد، ويوم سعيد!؟.

أما كان العيد الذي نحتفي بمقدمه كل عام مرتين أو مرات يزيد في أوضارهم، نقمتهم على الحياة.؟ وانتكاس آمالهم التي فهمت في العيد مواساة للمعدمين، وانتصاراً على الدمعة، وقهراً للعراء، وتثبيتاً لدعائم السلام والحب؟ وإذا بها تصدم في حقيقتها، فلا تجد في العيد إلا ما تجده في غيره من الأيام، موتاً في المعاني، وجحوداً في الحقوق، ونكراناً للفرحة الكبرى، وخذلاناً لمباهج العيد الروحي الذي نادى به العقل ودعا إليه.

ليتك يا «كجا» كنت معي منذ أيام مضت وكنت في عيد! لقد هرعت كما هرع الناس، ببسمة مصطنعة فوق شفتي، بفرحة مرتجلة ضاق بها صدري، وبثوب جديد كنت أحتفظ به منذ خمسة أعوام أو تزيد، أدخره للأعياد! ولا شيء غير الأعياد يا «كجا»، وفي الطريق وكنت أزحف كالسلحفاة شامخاً بأنفي نحو السماء لا أكاد أبصر أحداً من الناس، اصطدمت قدماي بطفل عارٍ رابض إلى جوار أمه.

طفل «عار» يا «كجا» لا يملك ما يستر به سوءته، لقد دهمته قدماي فصرخ: ما أثقلَ تلك الصرخة على قلبي، وأخذني جنون المظهر يا «كجا» فرحت أشتمه، وأتعالى عليه وعلى أمه. (كيف يقف في طريق من لبس الثوب الجديد؟).

لقد كانت أم الطفل أعقل مني أيها الحبيب، لقد كانت تملك بسمة صافية كإشراقة الصباح! وعقلاً كبيراً لم تخدعه مظاهر العيد، وأجابتني:

(ألا تبصر أيها العاقل طريقك؟ إنني هنا في رصيف، إن الطريق عن يمينك واسع لا ضيق فيه)!

ولكن جنوني، ثار في وجهها — جنون من يلبس الثوب الجديد —:

(إن هذا طريق لا يحق لأحد أن يقيم فيه)

ورمتني بنظرة شاردة هادئة، واغرورقت عيناها ثم قالت:

(وأين تريد أن نقيم أيها العاقل؟! ألا تدلني عليه؟)

وصرخت: (في أي مكان تشائين غير الطريق!)

ومسحت دمعة من فوق خديها، ثم قالت: (إنني لا أملك إلا الطريق أيها السيد، إن الأحياء لم يدعوا لي مكاناً ألوذ به).

وزجرني عقلي، لقد تذكرت أنني أجرمت في حقها وفي حق صغيرها، فأبديت لها شيئاً من عذر لا أدري أقبلته أم لم تقبله، إلا أنني أذكر أنني

سألتها: (إن الناس في عيد أيتها الأم، كل الناس في عيد، فأين لصغيرك حلّة العيد؟! إنني أراه عارياً!).

لقد أجابتني بصوتها المنهدج الهادىء:

(إنها عليك؛ لقد أخذتها ولبستها عنه).

وذرفت عيناي الدموع يا «كجا» لقد تذكرت مرارة العيد العابر التي نقضيه ونمضي به إلى هاوية الزمن، دون أن نتعمق في فلسفته، بل ودون أن نترحّم فيه على البائسين والمستضعفين منّا!.

إخال أعيادك «المائة» يا «كجا» كلها من لون هذا العيد الذي قضيته منذ أيام، فشقيت فيه مع أم طفل وطفل نبذهما المجتمع كغيرهما من المعدمين، ثم أصمّ عنها أذنيه فلم يسمع، ولم يرحم.

ما أشقى الأعياد التي لا تحمل إلا المظاهر والقشور، إنها أمرّ من سائر الأيام، ليتنا أنصفناها فقلنا إنها من أيام السنة فقط، ليست بأعياد، أو كانت لنا أعياداً نصافحها بقلوبنا؛ بعقولنا؛ ثم بالتفاتنا إلى كلّ بائس؛ فهل تعديت الحقيقة يا «كجا»؟ هل ظلمتك وظلمت نفسي وظلمت الناس؟ أستغفر الله إن كنت أخطأت.



الهارب من الحياة

لقد لاقيته ، كان بادي الوجوم، معصوب الرأس، شارد النظرات، لاهث الأنفاس، لا تكاد تسمع منه إلا زفرة تحكي لي ولك ما يعانيه من مرارة وحرمان.

لم يكن في الثلاثين من عمره، ولا في العشرين من عمره، لقد كان بين الثلاثين والعشرين، إلا أن ملامح وجهه الشاحب، ونتوء عظامه، ورعشة كفيه، وهزاله الصارخ يحدثك بأنه ابن الخمسين من الأعوام أو يزيد، لقد أكلت عليه المتاعب وشربت حتى لم تعد تترك له متنفساً من أمل ولا جذوة من رجاء، لقد جمع بين شباب الأعوام، وبين مشيب الروح والجسد؛ فبدأ مزيجاً حائراً من قوى حنت رأسها للزمن، ومن مأساة انتصرت على كيانه فأشبعته الشيخوخة وأسلمته إلى الليل. عرفه الناس باسم «سعيد» هكذا سمّاه أبوه وسمّته أمه، أما هو فقد عرف نفسه بالشقي، بالطريد، لقد انتزع ذلك من حاضره، من أيامه السود، ومن أحزانه التي لا تنقطع.

والويل للإنسان حين لا يبصر مسلكاً من أمل، وما «سعيد» ذلك الشقي الطريد إلا صورة قائمة لأحزان الإنسانية التي لا تفصل بين مراحلها فرحة، ولا تبدو من حلقاتها مسحة من أمل. لقد كان زريبة أو لأقل فرناً تعذب فيه آمال شقية حاولت التعلق بأهداب المستقبل فنطحها الواقع بقرنيه، ثم داسها بأقدامه الغلاظ، حتى انغمست في أعماق اليأس، وحتى التصقت بالتراب..

لم أكن أعرفه لولا أنني سمعت عنه، وقرأت عنه في زاوية صغيرة من زوايا إحدى الصحف.. كنت أفهم أن هناك أكثر من بائس، إلا أنني كنت أجهل أن يصل البؤس بأصحابه إلى حد الكفران بالحياة، التعلق بها، وكنت أجهل أيضاً أن هذا الشبح الملفع الضارب في متاهات عمره هو ذلك الذي قرأت عنه وسمعت عنه، لولا ذلك الصديق الذي دلّني عليه بإيحاءة هادئة، وكنا نعبر طريقنا الطويل المملوء دموعاً ذات مساء.

لقد قال بصوت يملأه الحنان والرثاء والكآبة:

إن هذا «سعيد» الذي كتبت عنه صحيفة (...)

وتلاشى كل ما في مخيلتي من أفكار أحملها، إلا فكرة واحدة فقط علقت به، فكرة هذا الذي تصدى له الزمن فأدمى كبرياءه، وجرح عواطفه، وأسلمه إلى مرارة الطرد والتشريد! ودنوت منه، لقد كنت أتلفت في فزع وأنا أقبض على كفه، كنت أخاف، وقدمت له نفسي في شبه جنون، جنون البسطاء، وعرفني، ورحت معه وثالثنا نعبر الطريق حيث أحاطت بنا العزلة والخلوة إلا من البراءة. ومن سرد الحقيقة لحياة إنسان. لقد وجد «سعيد» نفسه للمرة الأولى يعبر كما يعبر الأحياء؛ وكم في تعبير الأحياء يكمن ألف معنى ومعنى للآلام.

ولد «سعيد» كما يولد كل طفل، كانت له بسمة منحتها له المقادير. كان له أمل، ولكن الزمن —ما أقساه— شح بالبسمة، وبخل بالأمل فجردهما من شفتيه ومن قلبه، وظل سعيد ومازال الطفل ترعاه دموعه، بدلاً من حنان أمه التي أبعدت عنه لإصابتها بذات الرئة؛ أما أبوه فقد جردته أيامه من إحدى كفيه وإحدى قدميه، بات لا يصلح للحياة لأنه فقد عناصر السعي، لم يعد ذلك القادر على أن يكسب، والويل للعاجز يا «كجا» في محيط لا يرحم العجزة؛ وما حيلة هذا الصغير:؟! ماذا في مقدوره أن يفعل

وقد قلاه حتى الأطفال، وقد عيره حتى الأطفال، لأن أباه «لص» ولأن أمه «مسلولة» ولأنه جمع في تاريخ أسرته مرضى البدن والروح والفقر.

يا للأقدار! حتى الصبية الصغار لم يجد من بينهم من يفتح له صدره ليدفن فيه رأسه الصغير، وليبكي، وما كان ذنب الصبية، فالصغار لا يحقدون، ولكن الآباء، آباء الصبية هم أولئك الذين أوحوا إلى أطفالهم: (أن اطردوا هذا الذليل المنبوذ الشقي، أن اشتموه)! والأطفال لا يناقشون ما يوحى إليهم، لأنهم لا يفكرون!

والروح يا صديقي «الكجا» الروح التي تشب على أنغام السباب، وعلى مراحل القذف والطرد، روح ساخطة حاقدة، يستهويها الليل بصمته، بعزلته، لأن له سواد واقعها، ولأن له رهبة أيامها.

فلا غرابة في أن يشب «سعيد» ينظر إلى الحياة التي بترت ساق أبيه، وقطعت راحة أبيه، ينظر إليها كالظامىء الذي لا يطفىء لهيب عطشه غير الدماء، ومن الحياة المتمردة المعصوبة العينين! ولكنه مسكين أعزل وتائه، طمست حرقته كل رغبة في أن يتشبث بالعيش.. بأن يكون (إنساناً) رغم حرصه على أن يكون (إنساناً) لقد نبذه المجتمع يا «كجا» نبذه حتى من فئات العيش، وحتى من التماسه لقطعة من رغيف يابس، كذلك الذي تقرضه «الفيران» في عدم شهية أو لذة. وكان جرمه يا «كجا» أن أباه لص مبتور الساق والكف.

وكان جرمه يا «كجا» أن كانت أمه مصابة بذات الرئة، بالسل.

وشاء حينها أن ينتقم من الحياة، أن ينتقم من نفسه، من حياته الصورية، التي باعدت بينه وبين الحب في أن يتعلق بها، لقد سطا كأبيه وكان أن فقد إحدى كفيه، ولكنه ظل حاقداً على نفسه، على صفحته القاتمة التي بعث ليملأها دخاناً وأنفاساً لها لهيب النار، ولها مرارة الفشل، ولها صرخة الخذلان.

كان يبحث له عن مسلك آخر، عن مسلك أقسى من أن يثأر لجوعه، لكبر يائه المحطم، كان يبحث له عن مسلك لكي يعرف الحياة بأنها تافهة، تافهة في عينيه منذ أن أسقطت من حسبانها دستور القيم، منذ أن جنت في عاطفتها، وفي ألاعيب خطاها!.

لقد نشرت إحدى الصحف في عدد من أعدادها وفي ركن متواضع صغير هذه العبارة، بعد أن ذكرت اسم الطريد «سعيد»:

(إنه مستعد للخدمة، أي خدمة، و دون مرتب، فقط ما يملأ بطنه وبطن أبيه وأمه).

وعلى الرغم من كل هذا ظل بلا عمل، لأن عقولنا الكبيرة!! يا «كجا» سامحها الله أنفت في قوة أن تستخدم «ابن لص»، ابن مبتور الساق.

ولكنه كما قلت، ولما لم يستجب أحد إلى ندائه سطا فاجتذت قدمه، وكان كأبيه لصًّا جديداً يبحث عن طعام! عن انتقام.

تلك أيها الحبيب كانت مأساة «سعيد» الشقي بدنياه وبحياته، لقد مدّ إليّ كفه الأيسر يودعني، وحين هممت أن أنبّهه إلى غلطته تذكرت أنه دون (يمين) فحنيت رأسي نحو الأرض وفي عيني دمعة حائرة انحسرت فوق خدي، لقد كانت دمعة مثقلة بالمعاني، ولكنها ضاعت ككل دموع البائسين!!



لا شيء ؟

صديقي «الكجا»

هل عرفتني ؟!.. لا أظن .. قل: إني لم أعرفك.. هكذا أقدر، ومن أنا حتى يعرفه الناس!!.. ألست بذلك التافه الصغير الذي لا ظل له إلا الألم.. إلا الجوع.. وإلا التسوّل بين معارج الطرق الضيقة الصامتة صمت القبور؟

اسمع يا صديقي «الكجا» اسمع من أنا! ثم قل ما شئت أن تقول.

قل : إنني حي.. وقل: إنني ميت.. وقل: إنني عاقل أو مجنون.. أو كلاهما إن جاز..

أرأيت إلى حمرة الشفق الباكي الحزين..؟

أرأيت إلى حشرجة المحتضر الممدّد فوق الفراش؟..

ثم أرأيت إلى صدى الدموع وهي تنساب في ذلة فوق خدود المسكين؟

أرأيت إلى الفقر بما يعني؟.. الفاقة بما تحتوي؟.

ثم أرأيت إلى الحرمان الطويل الذي لا يهزمه الأمل.. وإنما يزيد الأمل في امتداده وفي ظله وفي وجيبه ولهيبه؟

أرأيت إلى تلك الصورة الداكنة الربداء..؟

إنها جزء فقط من حقيقتي يا «كجا»

إنها خيوط صفراء وحمراء تفصح عن الدم المراق.. وعن اليأس الراعب.. وعن الصدى الموجع الذي لا ينام!

ما أكثر الآمال في حياة البشر! ولكن ما أتفه الآمال وهي تراوغك ثم تخدعك.. ثم تلقي بك في عناد أمام صخرة صماء من الفشل، وأمام موج زاحف هادر تتكسر عند سنامه قلوب الضعفاء.

ما أمرّ تلك الآمال وما أشقاها حين لا تقيك بظلها وهج التعاسة.. ولا ترد عنك بوردها ظمأ الجنون المتفاعل في عقليته الرعناء.

إنها الآمال يا «كجا» الآمال التي هدهدتني منذ الصغر.. منذ الصغر.. منذ نعومة الأظفار. فرضعت لبانها طفلاً.. و يافعاً.. وشاباً.. ثم إذا بها تتلاشى وتذوب في حمأة العراك البذيء، لتصفق مع الشيطان على هزيمة الوجدان.. وتخاذل العقل.. وتهرب الحقيقة.. وانتصار الليل.

إنها «الآمال!!» وكم عشتها يا «كجا». وكم عشتها أنت، وكم عاشها المعذبون في الأرض، فانتزعت من قلوبهم الخفقة. ومن شرايينهم الدفء.. ومن مآقيهم وميض الحياة المتألق كأضواء الصباح.

نعم .. يا «كجا» لقد كانت الآمال التي عذبت من قبلي الملايين. وستعذب من بعدي الملايين، وستضحك في وجه كل معدم. تسخر به. لا لأنه ليس بإنسان، ولا لأنه خلق من نار أو نور.. ولكن.. آه.. لأنه معدم.. لأن أوضار المادة الرعناء لم تتسرب إليه، لأنه بريء يعيش بالطهر. بالإنسانية. ولأنه لا ذنب له.

هكذا أنا .. يا «كجا» بؤرة حمقاء في نظر الأبراج. لا تصنعني الرحمة.. وإنما تلفعني الجريمة. تكبلني القيود.. وإنما تتسارع نحو خُطاي أنفاس الزبانية.. وإنما أحرث بأنفاسي المحمومة مكاناً ضيقاً لا يتسع لأكثر من خطاي، خطاي فقط أيها الحبيب «المجنون!!» وحين أتنفس على أنفاس البارق من السماء وهو يومض كشعلة بيضاء من الأزل.. حين أتنفس لا أجد إلا الضباب الرهيب يطوّق عيني في كبرياء.. يغلقهما بخيوط عميقة تحجب الشعلة.. وتكتم أنفاس النور.. وتعمر مكاني بظل الانزواء، وبظلمة الليل.. وبالخوف.. الخوف من خفافيش الليل اللاسعة اللاذعة، وأعناقها تتطاول كأنفاس الأقدار، إنها لا تشبع.. إنها تمتص الدماء، إنها تلتهم العظام.. إنها تكتم الأنفاس. وجرى بي الزورق المسجور يا «كجا»..

كانت مجاديفه تملأ وجهي برشاش الماء حتى لا أدري أكنت أنا المجداف.. أم أن الزورق أحس في وجهي بظمأ الحياة.. بلهيبها، فشاء أن يطفىء الظمأ.. أو ذلك اللهيب؟ وكان الموج الهادر يصفق من حولي.. وكنت أشهد في هزال ملايين الزوارق التائهة المكدودة وهي تتناطح.. وهي تقفز لتنحدر كالمجنونة.. وكنت أشهد ملايين الأرواح وهي تتأوه في عذاب.. تنتظر مشيئة السماء.

الموج .. الموج الغاضب الهادر الكبير ما أقساه! ألا يرحم..؟ ألا يسمع أنين الملايين..؟ ثم ألا يستجيب..؟ وخانني الأمل يا «كجا» هذه المرة.. خانني في أن أدرك فلسفة الموج.. فلسفة الضعف ثم فلسفة الملايين الهائمة في رحاب البحر المجنون..

وما وجدت.. ثم ما ألفيت.. إلا الصوت القديم النابع من آلاف السنين.. لقد كان يملأ سمعي.. كان يهتف:

الحياة أنشودة حزينة..

أوتارها من حديد..

أصداؤها ألم ..

أما معناها .. فعلامة استفهام كبرى!

وحين قذف بي الموج إلى الساحل.. حين ترفق بي، كنت أجد من حولي غلالة سوداء يبهرني ظلها.. كانت تقطع معي الأرض، كانت تبكي.. وكانت تتمتم.. وكانت تضحك.. ولكنها يا «كجا» كانت تقسو.. كانت تنهرني حين أبكي.. وكانت تحاسبني حين أتمتم.. أما حين أضحك فإنها تضحك معي طروبة معربدة.. كانت تريدني أن أضحك بكل الألوان.. بكل الصور..

تريد من دموعي ضحكاً.. ومن أنيني ابتسامة، ومن قيودي جناحين.. ومن فقري فردوساً.. ومن وحدتي ضجيجاً وأنساً.. كانت تريدني طيفاً لا يعرف الألم رغم أن الألم هو الذي غرس فيه القوى..

وكانت تريدني أن أمرح على قبور البشر.

وكانت تريدني أن أرقص وبين المجازر الوقحة الصارخة:

كانت تريدني وعلى الرغم من آلامي.. وعذابي.. أن أغرد فقط لظلال الجنة.. لسعادة الدنيا.. للسلام.. وللحب..

رحم الله تلك الظلال، ورحم الله السعادة والسلام والحب الذي كانت تعنيه وتتشدق به!..

هكذا .. أرادتني تلك الغلالة السوداء أن أصنع لبنات الغيم في قالب جامد متصلب لا نعيم فيه.. ألاّ أقول.. ألاّ أصرخ.. ألاّ أصف الحقيقة يا «كجا».. الحقيقة بآلامها. بشقوتها.. بعربدتها.. وبمهازلها المرة التي تطل من كل نظرة.

وأبيت يا «كجا».. أبيت أن أنسى الدموع.. أن أقبرها في ضباب النسيان.. في غبار المراوغة..

وأبيت يا «كجا» أن أقيّد الأنّات المحرقة وهي تتصاعد من أعماقي لاهثة ساخطة..

أبيت أن أقبر ذلك..

فإذا بتلك الغلالة تصرخ في وجهي، وإذا بموج زاحف من أعماق البحر الهادر يصفعني.. وإذا بي أحاول أن أجدف بزورقي من جديد.. أجدف فقط ملتمساً النجاة.. أما صوتي فلم يعد يتحدث.. لقد ملأته قطرات الماء المرّة التي كان يقذف بها المجداف فوق وجهي.

لقد رحت معه في صراع بين القوى والمبدأ.

وحتى خطاب آخر يا «كجا» أتمنى لك الحياة.

الثبات في وجه الأمواج الرهيبة.. أيها «المجنون!!» العاقل.

في المزاد !

صديقي الكجا !!

هل تزوجت ؟!

آه .. لقد نسيت أن أقول لك .. هل ابتعت لك عروساً بعشرة آلاف من الريالات أو تزيد؟!..

هل دفعت ذلك الثمن الباهظ لقاء زوجة لا تدري عنها .. عن جمالها وعن خصالها .. أكثر مما تدريه عن سكان (المريخ ؟!..)

لن أنتظر منك الجواب حول هذا السؤال ، فما كنت لأطمع منك بالحقيقة عن مأساة عشتها أنا كما عشتها أنت .. كانت بضعة من حياتي .. وجزءاً من أنفاسي التي أنفثها مع كل لحظة ..

أريد منك فقط أيها الصديق المجنون .. أن تسمع إليّ .. أن تنصت .. ولا بأس عليك أن تسعفني بدمعة إن كان ثمة في مآقيك دموع أبقت عليها آهاتك وعلاّتك !

إنها صور مرة من المأساة أحتفظ بها في أعماقي .. منها ما كان من حياتي الخاصة .. ومنها ما كان من حياة الآخرين .. إنها من الواقع الذي لا يتطرق إليه شك !..

ولنبدأ من هنا .. لنبدأ من اثني عشر عاماً مضت من الزمان .. أيام كنت في السادسة عشرة من عمري .. لقد كان للظروف ـ سامحها الله ـ قسوة الدهر، فلم تحفل في نفسي برغبتها في أن أنهي مرحلة أعوامي الدراسية .. «يا كجا» .. لقد أبت عليّ .. ألحّت .. بل وأقسمت في أيمان مغلظة أن أهجر الدراسة والمدرسة لأخوض معترك الحياة .. في سبيل شراء لقمة العيش

لأسرتي الكبيرة.. واندفعت مع عجلة الأيام القاسية المتثاقلة أكدح وأحرق أعصابي.. وأذيب جهدي لكي أوفر فقط وبعد اثني عشر عاماً من الزمان قيمة للمعذبين!..

اسمع ماذا أقول .. لقد كان رصيد سعيي الطويل ما يدنو من الثمانية عشر ألفاً بما فيها بعض مبيعات الأسرة من أثاث وعقار!..

يا للسماء.. ما أسعد هذا المخلوق وما أشقاه..

وتلفت صديقك «يا كجا».. تلفت للمرة الأولى يبحث له عن «عروس». واشتراها.. ولم يرع الصفقة.. لقد خسر البضاعة وفقد المال.. وربح الدموع!..

كان ذلك منذ سنوات عدة لها طول الأجيال..

وماذا يهمني وقد خسرت أول جولة؟! ولِمَ الإطراق والدموع مادمت شابًّا مفتول السواعد ملتهب الراحة..؟

واندفعت مع عجلة الأيام أركبها حيناً، وتطرحني أحياناً حتى لأكاد أنغمس في الحفر العميقة!..

وجاءت رقصة الأحلام مرة أخرى تراود خيالي.. وتهزني.. لِمَ لا تتزوج؟!..

ووجدت نفسي تقفز من مكانها في شبه جنون.. وهي تهذي..

هذا صحيح .. لِمَ لا أتزوج؟..

وبحثت عن زوجة أخرى .. وتزوجت .. اشتريتها بما أملكه من مال.. ودفعت الثمن للمرة الثانية فخسرت البضاعة.. وخسرت الثمن.. وربحت الدموع والإفلاس!

وتنهدت .. تنفست الصعداء .. وحمدت الله من جديد على الراحة.. إذ لم يكن لدي المال الذي سيدفعني إلى سوق (النخاسين) لأشتري منه نكبة ثالثة ورابعة.. وخامسة.. إلى ما شاء الله.. لقد شهرت إفلاسي مقروناً برصيدي الضخم من المآسي..

وقد تسأل «يا كجا» لِمَ خسرت في كلتا الحالتين الصفقة؟!

وقد تقول «يا كجا»«إنه النصيب الأسود.. ولا شيء غير النصيب الأسود».

ولكن اتركني لأنفث في أذنيك صرخة.. لا همسة.. لأنها شكاية جريح طريح:

(إن النصيب الأسود هو أن تنطبق أجفاننا خوفاً من أن يبهرها ضوء الشمس).

ترى أين هو اختيارك؟!.. أين هي آمالك التي تملأ رأسك؟! بل وأين هو حبك وأنت تطأ بخطاك طريقاً غامضاً مجهولاً وعيناك معصوبتان؟!..

إنك لن ترى الطريق.. ولن ترى الزوجة إلا بعد أن تضحي.. بعد أن تعتصرك المراسم في قسوة وعناد.. واستبداد..

وما بعد الزوجة.. وبعد لقائها.. يا «كجا»؟!..

إن قلبها.. وإن بعدها ألف آهة.. ومشكلة.. وخطر.!

هل تصدق أيها المجنون.. أن صديقاً تقدم إلى شراء حواء.. وتمت الموافقة على الثمن.. ودفع الثمن.. ولكن.. لقد أعيد إليه الثمن في صفاقة وشماتة، بحجة أن والدها اشترط على الزوج «السعيد!!» خمسين كسوة من نوع كذا.. فلم يف بهذا الشرط.. لقد اشترى فقط ثماني وأربعين كسوة لا خمسين كسوة!..

وآخر يا «كجا» كان له نفس النهاية، لأنه لم يمنح إخوتها السبعة سبع عباءات أسوة بأمها وأبيها وبجدها وجدتها.. تلك بعض الصور التي تطل علينا بين يوم وآخر.. وقبل أن تتم صفقة الشراء..

أما الصور الأشد مرارة ووقعاً، تلك التي تقوض وكر الزوجية بعد أن كان، فما أكثرها.. وأقساها.. وأدعاها إلى الشفقة والأسف!. والرثاء..

إنه شاب «يا كجا» تزوج. وانتهى بالنسبة لزواجه كل شيء.. دفع

الثمن.. وتسلم البضاعة.. وتسلم مع البضاعة أم الزوجة «الحماة».. وما أدراك ما الحماة؟

لقد أحب الزوجة.. وأحبته.. وعاشت إلى جواره قرابة العام!.. كان مدفوعاً بتعلقه وبحبه لزوجته إلى أن يقبل في الصباح وفي المساء رأس حماته التي شاركته داره.. ودثاره.. وأنفاسه أيضاً!..

لقد اتخذ من تلك «العجوز» أمًّا له لم تلده.. لقد كان بارًّا بها إلى أبعد حد الاسترضاء والعطف.. ولكن أتدري بماذا جازته؟!.

لقد نسي مرة أو مرات تقبيل تلك الهامة البيضاء المملوءة شيباً وحماقة، ورأت فيه العجوز تنكراً لعطفه.. لبرّه.. فأفسدت عليه تلك الزوجة.. أثارت بأقدامها غبار الفرقة.. وكان أن طلقها..

وشاب آخر «يا كجا» كانت له زوجة.. وكانت له حماة.. وكان يحتفظ في جوانبه بحب كبير.. وبعقل كبير.. كان يغمر زوجته بظلال الرعاية.. وبأكف الحنان.. ولكن «الغيرة» قاتلها الله.. أثارت جنون تلك الأم الصامتة.. الغيرة من ابنتها.. من سلطانها القوي على قلب زوجها وعلى ما يملك.. وما أسرع ما تنخدع المرأة.. لقد بذرت تلك الحماة بذور الريبة.. الشك.. في قلب ابنتها وضد زوجها.. والطاعة عمياء لا تبصر.. لقد تقبلت من أمها جميع ما تقول، وكان عليها إذاً أن تحفر لحبها قبراً تواريه فيه.. لقد تقمصت تلك الزوجة الهادئة صورة شيطان.. والعقل ينفر من الشيطان.. لقد تركها لأمها بعيداً عنه!.. عن داره..

إنها بعض الصور «يا كجا».. بعضها فقط تحكي لي ولك ولجميع الناس مأساة من الحياة التي ننساق إليها.. تدفعنا لها العاطفة.. التقاليد الميتة.. فهل نستفيق؟

حوار.. وحمار !

صديقي الكجا ..

مرة قبل هذه المرة عشت بك مع دجاجة .. ومرة ثانية التقيت بك في حياة نملة.. وهذه المرة حين هممت أن أخرج من حظيرة هذه الحيوانات إذا بحمار هناك يطل عليّ من بين فتحات زنزانته يناديني. يحرك لي أذنيه. وهل أبلغ من أذني الحمار دعاء حينما تتحركان.. لقد شاء يا «كجا» هذا الحمار. شاء الآ أفوته قبل أن يعرفني على نفسي.. من أنا.؟ ومن ذا أكون..؟ وماذا يجب عليّ أن أكون..؟

حديث حمار.. ولكنه حديث بليغ مليء بالفلسفة.. مشبع بالحكمة.. آه لو أننا عرفنا أنفسنا.. سبرنا واقعنا.. ووقفنا على حقائقنا كما يقف غليها حمار. اسمع يا أخي للحوار.. للحمار وهو يتحدث.. ثم احكم.. قل بعد ذلك رأيك..

ألفيته في زريبة واسعة لا تضم غيره.. زريبة لها سور طويل شاهق.. لها باب موصد ثقيل.. ومن بين فتحات ذلك الباب الموصد الثقيل كان يخاطبني.. و يدعوني.. قلت له.. وماذا لديك يا حمار.. فابتسم.. ابتسم في خبث وأجاب.

— إن عندي سرداً لحياة حمار..

وقلت له :

وأي حمار تعنيه في قولك؟ هل تعني نفسك. أباك.. أخاك.. أم ماذا؟

ولكنه ابتسم في خبث مرة ثانية وقال :

— أعني حماراً مركباً .. حماراً يجهل أنه حمار..

وحدجته بعيني كمن شاء أن ينفذ إلى أغوار أسراره.. وأجبته:

– وهل في عالمكم من يجهل أنه حمار؟. للمرة الأولى أسمع عن حمار مركب..

ونهق – هيهان – بصوت مزعج خلته منه قهقهة هستيرية صفراء.. وأجاب:

– لا ، إنه من غير عالمنا .. إنه من عالم آخر يدّعي العقل وهو لا يملك ذرة من عقل.. وتنبهت يا أخي إلى ما يعنيه الحمار.. تنبهت إلى أنني كنت المقصود في حديثه.. كنت الحمار في نظره، وبدا لي أن عليَّ أن أقف على الشواهد.. شواهد الإدانة بصفتي حماراً.. وقلت له:

– لقد فهمت يا – هيهان – أنك تعنيني.. فهل لي أن أعرف أعراض التحول.. وبوادر الانتقال من جنس إلى جنس؟

وأجابني وكان يحرك أذنيه الطويلتين:

اسمع يا عاقل! انظر إلى يدي ورجلي.. انظر إلى هذا السور الشاهق.. ثم انظر إلى هذا الباب المقفل الثقيل.. إلى هذه الزنزانة التي أقضي فيها أسعد مراحل حياتي.. هل تعتقد أن إنساناً يصنع بي ذلك.. وله ذرة من عقل؟

ولم أنتبه إلى ما يعنيه الحمار.. لم أفهم قصده وما يعنيه من كل هذا.. وقلت له:

– أفصح .. قل كل شيء بدا لك.. قله بصراحة.. فما عليك أن تخاف يا حمار..

وأجابني :

– ليتك تقول الصراحة كما يقولها الحمار.. كل حمار.!

وهاكها .. إنكم بني البشر لا ترضون لحمار مثلي أنهكه التعب والإعياء أن يسرح .. أن يجوب أرضه في طمأنينة وحرية.. لقد كبلتموني بالقيود.. رغم هذا السور الشاهق الذي لا أجتازه.. رغم هذا الباب الموصد الثقيل

الذي لا أنفذ منه.. لقد حسدتموني حتى على خطوات أشعر فيها بأنني حر: أما أنتم يا بني البشر. فتمرحون.. وتسرحون.. وتطلقون لشهواتكم العنان.. لخطاكم الآثمة سبيلها إلى العصيان دون أن تقيّدوها بفضيلة.. بخوف من عقاب السماء.. هذا أنتم. وذا أنا.. فأيّنا الحمار..؟ قل لي بربك؟!

ولم أجد طريقاً مفحماً للرد عليه.. لقد شعرت يا «كجا» بأن الحمار على حق.. وأن الإنسان على خطإ.. شعرت بأن ما قاله هو عين الواقع.. هو الواقع نفسه.. الواقع الذي لا نحسد عليه.. ويحسد عليه حمار..

ولم يدعني –هيهات– في صمتي.. لقد نهق في صلف.. وحين بصقت عن يميني وأنا أتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم.. حرك أذنيه.. وضحك ضحكة صفراء.. وانفرجت شفتاه عن هذه العبارة:

– وحتى أنا حين أنهق.. حين أصرخ كما تصرخون.. حين أحمق كما تحمقون يبصق أحدكم على شماله.. يتعوذ.. وكأنما كنت شيطاناً.. أما أنتم يا بني البشر.. حين تتفوهون بالبذاءة، حين تتراشقون بالسباب والتهم.. حين يأكل بعضكم لحم بعض وأعراض بعض فإنكم لا تبصقون.. لا.. ولا تتعوذون.. هذا أنتم يا بني البشر.. يا من تملكون العقول.. يا من عطلتموها وأنتم تشعرون بأنكم عطلتموها دون ساعة ندم.. ولا دمعة أوبة وتوبة!!

ومرة أخرى أيها المجنون لم تسعفني خاطرة بالرد.. لم أجد الجواب.. لقد كانت بوادر الهزيمة تلوح لي في الأفق البعيد.. تدعوني لأن أظل مع صمتي الموحش الذليل القاتل..

وخفت يا «كجا» على نفسي.. رثيت لواقعها الحزين.. منطقها الذي تعثر وتحطم أمام صخرة الحوار مع حمار.. خفت عليها ألاّ تكون كالحمار صراحة.. وفصاحة.. وعدلاً.. وهممت أن أثب.. أن أدع الحمار في زريبته.. في أصفاده.. وراء بابه الموصد الثقيل، وبين جدران سجنه

الطويلة الشاهقة. إلا أنه تيقظ.. أدرك مني كل شيء.. أدرك الهزيمة.. وأدرك رغبتي في أن أعود ورائي أجرّ أذيال الهزيمة، وناداني:

— أنا لن أقول لك يا حمار.. لن أبصق على خطاك وهي تمرح وتسرح فوق مسرح حياتك.. ولن أرضى أن تكبّل يداك بالقيود على مذبح الحرية.. لن أرضى لك شيئاً من ذلك.. وإنما فقط أتمنى لك أن تنصف نفسك.. ألاّ تعطل عقلاً وهبه الله لك دون سواك من المخلوقات.. ألاّ تكون حماراً..

وتواريت من زريبته في عجل، وعلى خجل وأنا ألوّح له بيدي مشفوعة بعبارة متعثرة مختلطة لا حياة فيها:

مع السلامة يا هيهان .. مع السلامة يا هيهان..

وبعد: أيها الحبيب المجنون.. هذه قصة حمار.. وحمار.. حمار بالأصل وحمار بالطبع.. حمار أوجده الله ليكون حماراً.. وحمار.. أوجده الله ليكون إنساناً فكان حماراً..

قصة حمارين.. أو قصة نموذجين من مخلوقات.. اختلفت شكلاً.. إلا أنها تعانقت طباعاً.. تساوى ثانيهما في تعطيله العقل مع زميله الآخر.. زميله الحمار.. إن لم يكن دونه تقديراً لحياته.. فهل ترضى يا أخي أن نعطل العقل.. أن يفضلنا الحمار صراحة.. وفصاحة.. وعدلاً..

أريد أن أسمع رأيك.. رأي عقلك حين يصحو.. حين لا يعطل.. حين تكون إنساناً لا يعجزه الرد أمام حمار عاقل كذلك الحمار الذي أفحم أمامه صاحب هذه المقالة وكان يعرفه على نفسه.



روح ومادة في الميزان

صديقي الكجا :

أيها تختار لو خيرت .؟ العقل .. أم الحظ ؟ الروح أم المادة ؟

العقل الذي تخدم به أمتك .. إنسانيتك ومستقبلك .. أم الحظ الذي يخدمك بالعطاء ، وتخدمه أنت بالجمع و بالتكديس .

أيها تختار لو خيرت ..؟ فكراً ثاقباً تنفذ منه إلى أغوار الحقيقة لتطل منها على كل شيء ، وتستوحي منها ما تملأ منه خيالك و بالك حكماً .. وعبراً .. وفلسفة ؟

أم أنك ستختار المال لتجعل منه لحياتك غاية لا وسيلة .. غاية لأن يكون لك في عالم الإثراء والجمع نصيب .. وأي نصيب .؟ إنني أخاف عليك يا « كجا » أن تختار بدافع من عاطفتك .. من أطماعك .. ثم لا تنجو.

أخاف عليك أن يجتذبك الحظ .. فيباعد الحظ بينك و بين عقلك ، ثم لا تكون شيئاً يذكر .. أخاف عليك أن تشدك المادة إليها فلا تفرق بين سعادة الجسد و بين سعادة الروح .. بين الهدوء المثير .. و بين الثورة الهادئة الحبيبة .!

أخاف عليك يا « كجا » أن يخدعك بريق المال فتخاله بريق الشمس .. أنفاس الصباح الجميل .. وإذا بك تتعمه كالأعمى لا يفرق بين شرق وغرب .. ولا بين جنوب وشمال .. أخاف عليك أن تستسلم للهدوء الذي يجتذب إلى الإغفاءة .. إلى السّبات .. ثم لا توقظك أحاسيسك وقد نامت معك .. ثم لا تنبهك أنفاسك وقد استسلمت مثلك للهدوء .. هدوء الأموات الذين يتحركون ولكنهم لا يعون ..!

أخاف عليك يا «كجا» أن تحب المال الميت فتعمى.. وأخاف عليك أن تكره المال الصالح فتعمى.. وأخاف عليك. الا تجمع بين الاثنين فتضل..

فمال لا يستحوذ عليه عقل هو حجارة صمّاء لا تغني فتيلاً ولا نقيراً.

وعقل لا تسنده مادة هو خطوط عريضة موجهة. ولكنها خطوط مرسومة في الوجه، تنقصها المواد التي تقيم لها الجذور.. وتجلّي لها الحواشي وتميز لها الوحدة والاتجاه. وتقيمها عالماً متحركاً ينفث أنفاسه من أفواه المداخن الجبارة.! وإذاً فمن حقك أن تشعر بدناءة المال دون عقل.. بخطورته ما لم يحسن تصريفه والتصرف به، واستخدامه كأداة للتمكن.. وبناء الأسس والقواعد.

أما العقل يا «كجا» فهو خير كله.. العقل ثروة سماوية لا تنضب وقد جردك نصيبك من المال.. والعقل قوة فعالة لا يهزمها أن تكون وحيداً.. أن تكون طريداً.. وأن تكون على قلة.. أو على إكثار.. أو بين بين..!

وإذاً يا «كجا» ما أسعد العقلاء.. ما أسعد أولئك الذين يحوون رصيداً كبيراً من إدراك، ومن مشاعر.. وإيمان.. ما أسعدهم ولن أقول مع الغنى فقط.. بل ومع الحاجة أيضاً.. ولن يضيرهم أن يكونوا فقراء الأغنياء بمقدار ما يضيرهم لو أنهم كانوا أغنياء الفقراء.

إنني لا أذم المال أو أتجنى عليه، ولا أرى في الثروة سبة ولا عيباً، بل أراها نعمة، ونعمة كبرى.. ولكنها نقمة دون عقل.. ومتى ضم إنسان مالاً وعقلاً؛ فقد اكتملت في زواياه مزايا، مزايا الرجل العظيم.. وعناصر الشخصية المكتملة.. عنصر الفكرة وعنصر البناء.. عنصرا الإيجاد..!

وإذاً يا «كجا» هل أعجبك مال بلا عقل..؟ وهل تختار..؟ هل أعجبك عقل دون مال..؟ وهل تختار..؟

أما المال والعقل معاً، فما أشك في أنك ستفكر في ذلك!. ولكن!

وبعد .. هل تريد أن تستشعر الفوارق الكبيرة بين راحة الجسد وبين راحة الضمير؟

هب أنك في قصر منيف.. في جنة صغيرة يحيطها خدم وحشم وبلهنية من عيش ورفاهية..؟ هب أنك كنت في أحضان النعيم وفي أحضان الغفلة عن تأنيب الضمير أيضاً.. كنت تسرق.. أو كنت تخاتل وتماطل.. وهب أن ضميرك ساعة تنبه من غفوته فناداك وأنّبك.. أترى جنّتك الصغيرة. خدمك وحشمك؟. وقصرك المنيف..؟ أترى ذلك كله سيسد عن خيالك، وسيرد عن بالك وخز الآلام.. ومرارة الدمعة.. ورعشة الخوف.. ووجيب العاصفة.. لا.. يا «كجا» إن كل مالك لن يساوي في نظر ضميرك.. في مقياس عقلك ذرة من فضيلة تفتقدها. ولا جرة لفلاحة تحطمها دون حق.. إن كل مالك لن يزن في نفسك —متى عقلت— فكرة صالحة.. عظة صادقة.. لفرد طغت عليه أوهامه فأفقدته الصواب. وضل الطريق، وإذاً فعقل لك بلا مال يساوي ملء الأرض ذهباً دون عقل..

وعلى ضوء من هذا، فإن عليك أن تختار.. وأن تميز حين تختار..

لقد قلت —المال— وكنت أعني المادة المجردة من كل إحسان ومنفعة.. وقلت —العقل— وكنت أعني به قيم الإنسان.. أفكاره الصالحة البناءة.. وما أحسن المال متى ما واكبته القيم الصالحة البناءة الهادفة.. يا «كجا».



الخير في الواقع !

الخير في الواقع كلمة نقولها نحن يا «كجا» .. أنا وأنت وهو... نرددها حين يرسب أحدنا في الامتحان مثلاً.. وحين لا يوفّق في مشروع مثلاً.. وحين يفشل له مسعى و يرتد له قصد.

الخير في الواقع .. ولا غير هذه الكلمة التي نخدع بها أنفسنا.. الكلمة التي نحاول أن نغطي بها عجزنا... وكسلنا وتواكلنا... حين لا يحالفنا توفيق.. وحين لا يوافقنا نجاح... بل وحين نمسك بتلابيب الصمت القاتل.. والجبن المريع.. والانتظار الفاشل. حين لا نقوى أن نسخّر الحياة لإرادتنا الحية فنقرب البعيد.. ونطوي المسافة.. ونقضي على خرافة المحال التي توهن من عزائم العاملين.. وتبدد من إرادات الإنسان حين لا يجد الحدو إلى بناء الصرح الواقعي المنشود..

الخير في الواقع .. كلمة نقولها يا «كجا» ونحاول معها أن نجعل من كسل الطالب الذي لم يقدر له النجاح في امتحانه فضيلة. ولم لا.. والخير في الواقع.. الخير في كسله.. في نسيانه ثم في رسوبه. ثم لا شيء..

الخير في الواقع .. كلمة نقولها ونحاول معها أن نجعل من وهن عزائمنا.. وموت معنوياتنا، وقبر مقدراتنا فضيلة، وأية فضيلة ما دام الخير كل الخير في الواقع، سواء أكان ذلك الواقع مما يضحك.. أم مما يبكي.. أم مما يجمع في مأساته بين الضحكة الساخرة.. و بين الدمعة المريرة السافرة.

ثم .. وننسى يا «كجا» مع هذا المثل أن الخير لا يقيده واقع نفترضه افتراضاً.. ولا تمليه أمثلة نصطفيها لنجد فيها شيئاً من تبرير.. ولنجد فيها شيئاً من ذر الرماد على العيون.. ولنجد فيها شيئاً لا يقره منطق.. ولا تدعو إليه حكمة أو بيان.. الخير لا يعني الواقع كل الواقع.. فمن الواقع خير.. ومن الواقع شر. وإذاً فإن حكمنا على عجزنا وعلى تقصيرنا.. وعلى النصيب الميت الذي نمناه ولا نجد غيره.. إن حكمنا على ذلك بالخير تغرير وهزء وسخرية بالأسلوب الذي يعتز به العقل. و ينادي به ضمير الأحياء.. وتدعو إليه المفاهيم الحية..

فواقعنا من حيث هو كان لزاماً علينا أن نحكم عليه.. أن نعطي له التقديرات الأمنية التي تصفه فلا تبخسه الحق.. ولا تضن عليه بتعريف يسلط عليه الأضواء.. و يكشف عن جنباته، و يعطي له الحكم وفصل الخطاب.

لا نريد يا «كجا» أن نخدع أنفسنا.. أن نصنع من الأمثلة ما لا يتّفق ومنطق الحياة.. إرضاء لنفوسنا المريضة، وسلوى لعزائمنا الميتة، وحتى لا يكون في ذلك الإحراج وإثارة كوامن النفس الصامتة.. البليدة.

الخير في الواقع .. مثل يجب ألاّ نقرّه في كل حالة من حالاتنا.. يجب ألاّ نقرّه لواقع أولئك الطلبة المتهاونين الذين أغفلوا مسؤولياتهم المدرسية فخانتهم مقدراتهم الضعيفة عند حلقة السباق.. عند مسايرة الامتحان.. ثم لم يجدوا ما يعللون به أنفسهم إلا — الخير في الواقع — يجب ألاّ نقرّه لطائفة لا تعمل، لا تحاول أن تعمل وهي تملك العمل.. دائماً تعيش على الاتكال وعلى ذكريات الماضي.. وعلى التجمعات الفارغة.. والأقوال الجافة، قتلاً للوقت.. وإهداراً لكرامة العمر.. وحين يطلب إلى تلك الطائفة أن تعمل.. أن تدفع الضريبة، أن تشارك في بناء صرح المجتمع، لا تجد إلا

عذرها في أن الحياة قصيرة عابرة، وخير ساعاتها ما استكنت فيه إلى الراحة والهدوء والنوم.. والخير في الواقع طبعاً. وحتى لو كان ذلك الواقع نوماً أو غفلة.. وزمرة ثالثة يا «كجا» تعمل.. ولكنها لا توفق.. يخونها حظها أن ترقى درجات السلّم الموصل إلى مستوى الأماني.. تتحطم مساعيها عند عتبات النصيب.. فلا تجرؤ أن تعاود الكفاح مرة ثانية وثالثة.. أن تعيد الكرة نحو تسلق السّلم.. بل ترى في فشلها ما يوهن في نفسها السعي.. و يبدد في عر يكتها القوى وتكتفي من كل مجهودها المبعثر المحطم بمثل يسلّيها ويخفف من غلواء نفسها.. ويجفف من واصب دموعها.. مثل يقول —الخير في الواقع— وحتى لو كان ذلك الواقع هزيمة في النفس وإفلاساً في السعي.. وإجداباً في الحصيلة.. بل وإبقاء لهزات الندم.. ودموع الذلة.. ورجفة الصغار والأنين الذي لا ينقطع ولا ينتهي..

يا «كجا» الخير في الواقع.. ولكن متى..؟

متى كان ذلك الواقع مشرفاً كريماً لا يرقى إليه هوان.. ولا ينتسب إليه انحدار.. متى كان واقعاً يملأه الكفاح ولا أقول النجاح.: فالكفاح شرعة الحياة.. شرعتها الدائبة التي لا يأس معها.. أما النجاح فهو حصيلة قد يوفق إليها المكافح وقد لا يوفق.. ولكن المكافح حين لا تهِن قواه.. حين لا يستسلم للقنوط وقد صدمه النصيب، لا بد أن يرقى وقد عاود السعي.. لابد أن ينجح.. ينجح.. وإلا فإن له العذر.

وإذاً فمن حقنا يا «كجا» أن نرضى بخير الواقع لا أن نتقبل الواقع كله بحذافيره خيراً.. وأن تكون نتائجنا.. وحصيلة جهودنا نابعة من فهمنا على أن الخير في العمل.. لا في واقع الكسل والصمت.. وفي نتائجها المرة.. ومن هنا يجب أن نعلم ونعمل وأن نحكم على الواقع من حيث هو خير.. أو من حيث هو شر.. ألاّ نخدع أنفسنا.

أعمارنا .. أعمالنا

صديقي «الكجا»:

– الذين يقدرون أعمار الرجال بالسنوات والأيام واهمون.. نعم واهمون كل الوهم، فما كان عمري وعمرك بتلك الأعوام ولا بتلك الأيام التي تقضيها وتقطعها بين مهدك ولحدك، وإذاً لتساوى الحيوان الأعجم.. مع الإنسان.. تساوى معه في عمره.. وساواه في قيمته لذلك العمر، ثم لا فرق بين إنسان وبين حيوان.. مادام العمر في نظرنا آماداً تتصرم من عقد الزمن، فتنشر صفحة لإنسان ثم تطوي صفحة لإنسان آخر... ثم لا شيء غير النفس الطويل، أو الغطيط الذي ملأ الفضاء ذات مرة.. ثم تلاشى.. واختفى.

أعمارنا يا «كجا» ليست بأعوامنا في الحياة.. فالطفولة لا تنتج، وإذاً ليست بعمر في مفهومها الحي.. والكهولة إذاً حين تجدب عن الإنتاج ليست بعمر.. بقيت لنا إذاً تلك الساعات التي تفيض عملاً.. وحركة.. ونشاطاً.. بل بقي لنا من تلك الساعات فقط ما يتّصف بطابع العمل والحركة والنشاط... والحياة.

فأعمارنا أيها الحبيب المجنون هي أعمالنا.. أعمالنا المجيدة.. ما نصنعه في سبيل الحياة من صالح.. وما نسديه من أجل الإنسانية من مجهود.. وما نقدمه لأمتنا ولتاريخنا من خدمات.. وإذاً فالذين يقدرون أعمارهم بأعوامهم خاطئون.. فما كان ابن خمسين عاماً بابن خمسين عاماً إذا كان عام واحد فقط.. أو أكثر من عام أو أقل مضى عليه من تلك المرحلة الطويلة.. مضى سدى دون أن يكون له في عالم العمل والإنتاج نصيب.. وأي نصيب.

ولا كان ابن الثلاثين عاماً بابن الثلاثين عاماً دون أن يعمر كل هذه الأعوام بما يثبت أنه إنسان جدير بالحياة.. جدير بالبقاء، وجدير بألاّ تفوته ساعة ولا دقيقة أو ثانية من عمره..

فحياتنا يا «كجا» هي حياة ضمائرنا.. وأعمارنا هي أعمار نشاطنا وجدنا... وغير هذا العمر وغير هذه الحياة لن يكون حياة ولا عمراً..

حكاية .. قد تكون أسطورة.. وقد لا تكون أسطورة.. أعجبتني.. حكاية تقول: إنه في بلد ما من هذا الكون توجد مدينة ومقبرة وموتى.. وأحياء..

وما عليك أن تعرف المدينة.. أما المقبرة فإنها تستقبل الموتى والأحياء، ولكنها لا تنساهم كما يقدرهم الآخرون.

ميت في عامه الخامس والستين توضع على قبره لوحة تثبت أنه فقط ابن خمسة أعوام..

ميت في عامه العشرين يوضع على قبره لوحة تثبت أن عمره فقط خمسة أيام.. وثماني ساعات..

وميت أو ميتة في عمره أو عمرها الأربعين، يوضع على قبره أو على قبرها لوحة تثبت أن عمره أو عمرها ثمانية عشر عاماً.. أو أقل أو أكثر..

وحين لا يعجبك هذا القول من عميد هذه المقبرة: حين لا تصدقه، وحين تستغرب، يعرج بك إلى مكتبه.. لتقرأ صفحة أو صفحات عن كل ميت واراه التراب.. وليقول لك: لقد ولد هذا الميت عام كذا.. ولم يعمل ولم ينتج حتى عام كذا.. ومن تاريخ إنتاجه وعمله بدأ تسجيل حياته التي يستحقها.. ثم يمضي بك في سرد حياة ذلك الإنسان ليروي لك كيف توقف إنتاجه لمرحلة من عمره.. ثم كيف عاد وعاد مع عودته تسجيل القلم لحلقات حياة ذلك الإنسان... لضبط ما له وما عليه دون تحامل أو غش.

وهكذا يا «كجا».. وبهذا ترصد نتائج الخير كأعمار للرجل، وتنسى ساعات الغفلة.. والفراغ.. أو النوم.. كساعات ميتة بليدة لا حق لها في الحفظ. ولا حق لأصحابها في الحياة. ولا نصيب لها في لائحة الأعمار.. أعمار الرجال الخالدين.

وإذاً يا «كجا»: هل حاسبت نفسك..؟ وهل تساءلت معها عن عمرك..؟ عمرك الذي سيسجله لك ولها عميد المقبرة.. أو عميد الضمير والحق.. والإنسانية.

هل بحثت مع نفسك ولو مرة فطالبتها ألاّ يكون هناك فراغ في أوقاتك إلا ملأته بالعمل الصالح.. وألاّ يكون هناك فتور في قواك إلا سلطت عليه طوفاناً من شبابك، من طاقاتك المنتجة ومن خطاك الواسعة الدائبة... إن عمري وعمرك وعمر جميع الناس لا تمثله الأيام ولا الأعوام التي نحياها ونقضيها بين سبات وتثاؤب.. وتباطؤ.. أبداً.. فأعمارنا تمثلها الحياة. حياتي وحياتك.. وحياة الآخرين.. إنتاجي.. وإنتاجك.. وإنتاج الآخرين. و دون الإنتاج لن تكون هناك حياة. و دون الحياة لن تكون هناك أعمار..

وعَليّ وعليك أن نفكر.. أن نحيا.. وأن نختار العمل لتكون حصيلتنا من أعمار الرجال كبيرة.. كثيرة، تملأ صفحات سجل العمدة... لا عمدة المقبرة، فليس لمقابرنا عمد.. ولكن لضمائرنا الحية.. لعمدة ضمائرنا الحية الذي سيحاسبنا. ولن يعذرنا بحال من الأحوال حين لا نحيا.. حين لا تكون لنا أعمار الأحياء وحياة الخالدين..

نثر في كلمات

لا عليك من بأس يا «كجا» أن تكون معوزاً محتاجاً أوصد الفقر في وجهك كل الأبواب.. ولا عليك ألاّ تكون كبيراً تجيش من أجله أقلام الناس، وتجهش في سبيله أقدامهم.

ولكن إياك .. وإياك أن تكون صغيراً.. أن تكون حقيراً لا حساب للكرامة والعزة في نفسك.

لا عليك يا «كجا» ألاّ يكون لك عمل لأنك لا تجد عملاً هنت دونه أو تخاذلت.

ولا عليك أن تتخلى عن عمل، أو أن تحرم من عمل قست عليك فيه ظروفك بالخديعة فوقفت في وجه الخديعة.. وأبيتها على نفسك.

ولكن إياك وإياك أن تمتطي جواد القدر لتقطع به مراحل الرتبة.. والراتب.. والشهرة الفارغة.

لا عليك يا «كجا» أن يقول عنك البعض: إنك ثرثار مجنون لا حدود لهذيانك، وانت تقول وتتحدث من أجل حق.

ولا عليك أن يقول عنك البعض الآخر: إنك شقي بكدحك، بكدك ليلاً نهاراً في سبيل لقمة العيش.. وشراء بسمة لصغارك الأبر ياء.

ولكن إياك وإياك أن تنعم براحة هيأتها لك ظروفك السوداء.. جباياتك الملتو ية.. وألفاظك المعسولة المخاتلة.

لا عليك يا «كجا» أن يصرعك الصراع، لأنك نازلت الكثرة ولم تهادنها أمام مطلب من حقوق ومستلزمات حياتك.

ولا عليك ألاّ تقوم من مصرعك لأن الدنيا أسلمتك للوحدة.. للعزلة.. للنسيان والجحود.

ولكن إياك وإياك أن تحاول الوقوف والصعود بأقدام مستعارة لا تقوى على حملك وإسنادك طويلاً لتخر ولتهوى بك إلى الحفر السحيقة المظلمة.

لا عليك يا «كجا» أن تقرأ كل ما يخطّه الكتّاب و يلقون به من أفكار وعبارات. ولا عليك أن تبدي رأيك.. رأيك القوي الجريء تجاه أيما فكرة مغايرة لرأيك حتى لو كان مصدرها عملاقاً جباراً من عمالقة الرأي والفكر.

ولكن إياك. وإياك أن تؤمن بكل ما تقرأ. أن تصدق ما يقوله كل كاتب دون أن تجعل لك أيما رأي فيما يكتبون.

لا عليك يا «كجا» أن تعترف بالحقيقة. أن تؤمن بها، لأنها حقيقة، مرة لا يستساغ لها طعم ولا لون.

ولا عليك أن تجهر بالحقيقة. أن تصدع بها أمام من تبهرهم الحقيقة فيلوون عنها رؤوسهم وكلها سخرية بك. وتقزز منها.

ولكن إياك. وإياك أن تقبر الحقيقة في نفسك لتكوى منها أعماقك، ولتختنق بأنفاسها رغم أنها ملك مشاع لغيرك. ملك لكل الناس؛

لا عليك يا «كجا» أن تعمل أجير بناء؛ أو حدادة؛ أو نجارة في سبيل النصرة لعيشك، لحاجتك؛ ولمجتمعك.

ولا عليك أن تشتري لقمة العيش بعرق جهدك، بشرف جهودك، باقتحامك معركة العمل والبناء.

ولكن إياك؛ وإياك أن تملك القوى فتعطلها؛ الإمكانيات فتميتها وتهينها؛ أن يكون لك شباب فتنحره بالتسول، برعشة الكف الممدودة المهزوزة وهي تستجدي وتسأل المحسنين!

لا عليك يا «كجا» أن تقنع بالرغيف وغيرك يملك «حقًّا، ما هو أحسن من الرغيف وأشهى؛ ولا عليك أن تركب حماراً هو ملك لك؛ وتدع لغيرك ما يركبون وإن فاقوك مركبة وموكباً.

ولكن إياك: وإياك أن تنسى اخوة لك أدمت الصخور أقدامهم وهم يزحفون في العراء القاسي ولا يجدون ما يركبون.

لا عليك يا «كجا» أن تكون صورة حية ناطقة ومعبرة لما أوجده الله جل شأنه وأراده.

ولا عليك أن تكون قاسياً حين تحب القسوة، رحيماً حين يدعوك العفو. ولكن إياك وإياك أن تعطل مفاهيم حياتك. فتعكس في تصرفاتك الحقيقة، وتقلب في ذاتك الأوضاع، فتتضارب الرحمة مع الشدة. و يتقارع الأمل مع اليأس. وتمتزج روح الخير بر يح الشر. فتبدو كالظل الباهت الهائم؛ لا يحمي صاحبه لفحات الهجير. ولا يقيه وهج الشمس المحرق.

لا عليك يا «كجا» أن تكون وحيداً بهيكلك. لا يؤانسك بشر. رغم أن روحك تتموج في عباب البشر ية وزحامها.

ولا عليك أن تكون طر يداً في فنائك، وفي فضائك، لا يؤانسك أو يشفق عليك إنسان، لأنك تقضي مرحلة من عمرك لا بد لك منها.

ولكن إياك. وإياك أن يكون نصيب إخوتك منك فقط هو ذلك الهيكل المتحرك. المتحرك المتراقص. أما روحك. وأما مشاعرك فهي تعيش بعيداً.. بعيداً عن معترك إخوتك في الإنسانية.

نعم يا «كجا» إياك. وإياك.



ليس عيباً أن تكون فقيراً

صديقي «الكجا»

هل سألت ضميرك .. ضميرك النابه المتيقظ ؟ هل سألته وقد أبى جنون بعضنا .. أبت صفاقة ذلك البعض أن يردّ التحية بمثلها أو بأحسن منها وقد لاقاه فقير معدم بدأه بالسلام .. بادره بالتحية .. ثم لم يرد عليه .. ؟

هل سألت ضميرك حين يشفعك و يسعفك الضمير عن ذنب ذلك المعدم الذي اختار له نصيبه أن يكون صفر اليدين. خالي الوفاض؟ هل سألت ذلك الضمير أكان ذلك الصنيع المرّ مني ومنك في إباحة من التمرد .. من الاحتقار .. من الصغار الذي نلحقه به .. من التقطيبة الجامدة الجاحدة في وجه الفقير الذي كان ذنبه أنه كان فقيراً .. مجرد فقير .. لم يسرق .. لم يحتكر .. ولم يضمها في خزانته مادة رعناء جمعها الكسب الحلال .. وجمعها الكسب غير الحلال أيضاً ؟

هل سألت ضميرك مرة من المرات ؟. هل استوحيت منه ؟ وهل تعرفت منه على صوته المملوء إنصافاً وعدلاً ؟ ماذا سيقول لك ولي وقد هزنا الاستكبار فركلنا بأقدامنا روح الإنسانية الرحيمة .. وحطمنا بشموخنا .. باستعلائنا .. بخيلائنا كل مفاهيم التواضع .. والبر .. والفضيلة ؟

هل سألت الضمير عن الفقر؟ وأي شيء هو الفقر في نظر القيم الصاعدة لمكانة الإنسان؟

الفقر لم يكن سبّة .. لم يكن عيباً ولا عاراً .. وروح الانتكاسة والإجرام فقط هي التي تلوح لنا بصغار الفقراء .. ودناءة الفقراء .. و بالاحتقار

للفقراء.. فروح الفقير.. روحه الصافية.. ومشاعر الفقير.. مشاعره الدافئة.. وإنسانية الفقير.. إنسانيته الكريمة الرحيمة.. مازالت هي هي.. تومض في أعماقه.. وتشتعل بين جوانحه.. وتبعث فيه خيوط الصفاء.. ورقة الإنسان.. وعذوبة الحب الكامن بين جنبيه.

الفقير إنسان جردته حياته من أوضار المادة وأخطارها، فلم تطغ على أفكاره نقمة الجشع.. ولم تلوث يديه دماء الاحتكار.. ولم يعكر هدوء نفسه وطمأنينتها انتصاره لرغبة حمقاء هي منه وله دون سواه من إخوته الناس..

الفقير.. إنسان خلق بنصيب كغيره من الناس.. ونصيبه الذي مكنته له حياته مهما كان لا يعني هوانه في لائحة الوجود. ولا يعني أن إجدابه وقحطه في قاموس حياته المادية نقص في المكانة.. ولا دليل على إهانة... فالذين قادوا مواكب البشرية والذين حملوا مشاعل الدعوة.. والذين أضرموا روح الحب والحياة في هيكل الأجيال الزاحفة.. كلهم.. أو جلهم كانوا فقراء.. نعم كانوا فقراء.. كانوا يملكون أن يكونوا أغنياء.. يملكون ما يطردون به شبح الجوع. ورقعة الفراغ والحاجة. ولكنهم أبقوا على الفقر.. أبقوا على حياتهم المبسطة الهادئة.. أبقوا على الظلال التي تقيهم وهج الطمع.. وبريق الرغبة الجائعة.. ومآسي الانكماش في زوايا الافتراس.. بل وأبقوا على أرضهم وطاء.. وعلى سمائهم غطاء.. وعلى فراغ بطونهم غذاء.

الفقير يستحق مني ومنك الرحمة.. إن لم تكن الرحمة بأموالنا.. وطباعنا.. وتخفيفنا عن آلام فقرهم.. فلا أقل من أن تجمعنا بهم حسنة السلوك ورقة المعشر.. وبشاشة اللقاء... ثم إشعارهم بأن لهم كفّة لا ينتقصها أن يكونوا فقراء، ولا يخفف من ثقلها أن يكونوا معدمين...

عادة مرّة يا «كجا» .. ما زالت تشين علاقتنا بإخواننا ممن أخنى عليهم الزمن فجردهم من سلطة المال.. عادة تؤكد مدى قسوتنا في وجه الفقراء لا

في وجه الفقر.. قسوتنا في وجه الفقراء... تجاهلاً لهم.. تحاملاً عليهم.. واستخفافاً بهم.. وليتها كانت قسوة في وجه الفقر.. قسوة تطيح بظلاله القاتمة.. بأشباحه المتراقصة.. إذاً لما كان هناك شعور بالنقص.. شعور بأن هنا من يسلم عليه و يرد عليه.. ومن يسلّم ولا يرد عليه.. شعور بأن هنا من يستحقون الرحمة والمحبة ولكنهم لا يرحمون.. ومن يستحقون الجزاء والعقاب.. ولكنهم لا يعاقبون..

شعور بأن هنا من يتمسك بأهداب الصفاء فلا يثاب.. ومن يتمسك بأهداب الجفاء.. ولا عقاب..

شعور بأن المجتمع لا ينصف نفسه.. لا ينصف الناس.. لا يميز بين الفقر البريء.. والفقر الكافر.. بين الثروة البر يئة والثروة الكافرة.. شعور بأننا نحتاج إلى -مجهر-.. إلى -تلسكوب- يز يل الغمّة عن أبصارنا.. يكشف الظلمة عن أفقنا.. يحيل مجتمعنا المجزأ المتنافر إلى مجتمع مثالي يزدري الخطيئة والإجرام في شبحي الفقر والغنى.. و يقدس الفضيلة والخير في شبحي الفقر والغنى أيضاً..

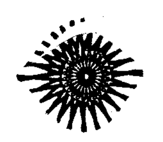
صديقي «الكجا»

ما أحوجنا إلى أن ننصف الفقراء.. ألاّ نشعرهم بالصغار. بالهوان.. بأنهم دون مستوانا لأنهم لا يملكون ما نملكه من مال، فالمال وحده لم يكن مقياساً لفضيلة ولا رذيلة.. ومثله الفقر لم يكن مقياساً أيضاً لفضيلة ولا رذيلة.. وإنما الفضيلة أو الرذيلة هي تلك الطباع التي تنشأ.. هي تلك الخطوات التي تطبع.. تميزها مؤثرات النفس.. واندفاعات العاطفة.. وتموجات العقل بين زحام الزمن العنيد.

إن ديننا السمح يحتم علينا أن نرحم.. أن نرحم الفقير.. نرحمه بمالنا.. بمواساتنا.. برحابة صدورنا.. بابتساماتنا، بأن نشعره بأنه إنسان كغيره لا ينتقص من قدره فقر ولا حاجة.

وأخيراً يا «كجا» إن علينا أن نساعده على فقره، لا أن نساعد الفقر عليه فنحطم ما تبقّى لديه من ثقة في الحياة..

تلك هي واجباتنا التي يحتّمها ديننا السمح.. شرعتنا النبيلة وضمير البشرية الحر المنصف.. واجباتنا تجاه كل فرد أخنى عليه الفقر. وقست عليه يد الدهر.. فهل ننصف الفقراء.. ننصفهم ولو بأخلاقنا على الأقل.. نشعرهم بكرامتهم كبشر.. كأناس لهم في عالمنا كفّة وميزان؟ ليتنا نفعل ذلك.. ليتنا ننصف. إذاً لما كان هناك فقر مال.. وفقر طباع.. فقران يفوق ثانيهما أولهما مرارة.. وبشاعة.. وأسفاً..



المجتمع المثالي التعاوني في دنيا النمل

صديقي «الكجا»!

إنها قصة تافهة.. قصة أطفال، أو هكذا يبدو لي مع الأسف.. ولكن ما ذنبي وذنبك ونحن نعيش في مجتمع أطفال.. ولكنهم أطفال كبار غير أبرياء؟ نعم ما ذنبي وذنبك أن أسرد عليك قصة تافهة كحياتنا التي نحياها.. كحياتنا التي نودعها المجهول ثم لا يهمنا أن تموت تحت وطأة العدم وثقل الأيام.. أن تتبخر أمام وهج الخريف.. الخريف الذي لا نضارة ولا ورود فيه..

قلت لك: إنها قصة تافهة .. وأتفه من القصة كاتب القصة.. وإذاً فلا غضاضة عليه وقد اعترف بما هو عليه.. وبما هو فيه.. أن يسرد القصة كما يراها، أن يحكي القصة التافهة في نظره لا في نظر الحياة.. فالحياة لا تكون تافهة.. وإلا لما كانت حياة..

القصة أيها الحبيب المجنون قصة —نمل— أو— نملة:
أما كيف جاءت هذه القصة فلها قصة..

كنت مع نفسي في حيرة.. كنت أفكر وأتساءل فيم أفكر.. كنت ضائعاً أبحث عن ضائع.. ولا أدري كيف ساقتني الحيرة إلى نظرة شاردة.. نظرة لم يكن لها معنى إلا أنها تبحث عن شيء تدريه.. لا تعرف ما هو.. ولا كيف يكون.. لا تدرك كنهه..!

وجاءت تلك النظرة الحائرة الشاردة على حركات نملة.. نملة.. صغيرة كنفوسنا تماماً.. سوداء كطباعنا تماماً.. لقد كانت تصنع شيئاً.. كانت

في زحام مع نفسها من أجل لقمة العيش.. وفكرت فيما تصنع.. وألفيت أن النمل يصنع المعجزات.. يسعى إلى قوته.. إلى حياته بتلك الطاقات الذرية والنووية التي نسعى بها نحن إلى موتنا.. إلى إبادتنا.. إلى حصد ذخيرتنا..!

ورأيتها وكانت محملة بقطعة من التمر تكبرها عشر مرات.. أو أكثر.. إنها تحاول في إصرار أن تجتذب تلك القطعة الكبيرة بالنسبة إليها.. تجتذبها إلى جحرها.. إلى أولادها.. إلى أهلها.. إلى قومها.. إلى كل النمل.. ولكن قواها ارتدت إليها خاسئة حسيرة ذليلة..؟ فالنملة تملك طاقة محدودة من القوى.. طاقة تخر أمام الثقل الجبار كثقل تلك القطعة من التمر بالنسبة إليها.. ومع هذا.. مع هذا الثقل.. ومع طاقتها المحدودة، كانت في مد وجزر.. في تشبث وتصلب.. وفي محاولة كبرى.. فتارة تحاول اجتذابها إلى اليمين.. وأخرى إلى الشمال. وتارة ثالثة تحاول اجتذابها من أعلى وإلى أعلى.. وكأنما شاءت ألاّ تترك طريقاً إلى غنمها إلا سلكته.. كنت يا أخي أنظر إليها وأنا أقول مع نفسي:

(أين هو الإنسان ليأخذ دروس حياته وكفاحه من واقع نملة؟)

وليت الإنسان أخذ دروس حياته وكفاحه من نملة إذاً لصنع المجتمع البشري المثالي.. ولكن سامحه الله.. شاء أن يكون ـ إنساناً ـ ألاّ يكون كالنمل تعاوناً.. تضافراً.. واتحاداً.

ومرة ثانية أعود إلى النملة وقد امتد بها الصراع.. وقد امتد بها النزاع.. كما لم يمتد إليها اليأس ولا التبرم.. ولعل النملة وقد أعيتها المحاولة الكبيرة فكرت.. وقدرت.. وتذكرت مجتمعها المثالي. مجتمعها التعاوني.. تذكرت النمل فأسلمت لخطاها العنان.. لأنها في حاجة إلى النمل..

مسكين الإنسان.. مسكين أنا. لقد ظننت لها طباع الإنسان.. طباع العجز.. طباع الملل، فضحكت في سخرية منها وأنا أتمتم:

(عجزت النملة.. يا لها من تافهة حقيرة تحاول المستحيل دون أن تفكر أو تقدر..).

وضحكت منها كما كانت عادة أحدنا نحن البشر حين يهزأ من أخيه لسبب أو دون سبب.. ولكنها ضحكة سرعان ما تلاشت.. وماتت فوق شفتي.. لقد أبصرتها عائدة.. أبصرت النملة ومعها نملة أخرى.. نملة ثانية كانت تجري خلفها لا تكاد تنحرف عن طريقها قيد أنملة واحدة.. ونظرت إلى قطعة التمر.. وإلى النملتين. إلى الصراع بين الحاجة والمحتاج.. وكان على أشده.. ولكن قطعة التمر أيضاً كانت أكبر منهما خمس مرات أو أكثر.. كانت تتحرك. و يبدو لي أنها انزاحت بطيئة.. بطيئة عن مكانها.. هذا ما أحسّته النملتان على ما يبدو.. لقد كان إحساسهما أنهما في حاجة إلى مجهودات أخرى.. مجهودات نمل يحمل عنهما الثقل، أو قل: يخفف عنهما الثقل على أقل تقدير.. وإحساسهما لم يكن فكرة مجردة.. لم يكن خاطرة جافة. وإنما كان خطوة فعالة دفعت بإحدى النملتين لأن تعود مرة ثانية من حيث جاءت، وكانت تبحث عن أسرة مجتمعها التعاوني المثالي في سبيل التعاون ومن أجل المثالية..؟

ومجتمع النمل يا «كجا» لا يعرف الأنانية.. لا يقر الفردية.. لا يؤمن بالحسد ولا بالحقد.. إنه يؤمن فقط بأن حياته ملك لغيره.. ملك لكل النمل.. ملك للجميع.. ومن أجل هذا هب النمل يناصر.. و يضافر. و يعمل من أجل غيره.. من أجل كل النمل.. من أجل الحياة التي يحياها..

لقد عادت النملة بنمل. عادت ومعها ثلاث من أعوانها.. وكانت خمس قوى.. واحدة كانت ترابط أمام الوجبة الكبيرة، وأربع عادت إليها لتحمل معها تلك الوجبة حيث يطعم شعب النمل في مساواة.. وحب.. وإخاء..

وأبصرت تلك القطعة من التمر وكانت تعبر طريقها، تجتذبها سواعد طو يلة مفتولة.. سواعد تلك الأسرة الصغيرة التي يتكون منها المجتمع الكبير

لأسرة النمل.. أبصرتها. والحقد.. الغيرة.. الحسد.. الغيظ.. كل ذلك يملأ نفسي.. لقد جننت، وكيف لا يجن إنسان ساذج غرّ مثلي وهو يبصر عالم النمل تعمره وحدة السعي.. وحدة العمل.. وحدة الجهود دون أن يقوى هو نفسه — وهو الإنسان صاحب العقل المفكر — على إيجاد مجتمع مثالي تعاوني كمجتمع النمل.. ذلك الصغير الحقير التافه في نظره..؟

وبعد يا «كجا» هل سررت لهذه القصة التافهة؟. إن كنت كذلك فأنت تافه مثلي، وإن لم تكنه فأنت إنسان.. إنسان يعيش في مجتمع من لون آخر.. مجتمع لا يؤمن بالسفسطات والخزعبلات.. بالقصص الساذجة كتلك القصة التافهة لمجتمع النمل.. النمل الصغير الحقير التافه في نظرنا نحن أرباب العقول.. نحن بني الإنسان.. نحن الذين لا نفتقر كما نرى إلى مثالية وتعاون.



كلنا عنوانها ..!

صديقي «الكجا»

لئن كان فهمي وفهمك للحياة ظنوناً وجنوناً فلكم خسرنا .. ولكم أسأنا إلى أنفسنا وإلى حياتنا الفهم ..

ولئن كان مدى علمك وعلمي بالحياة أن نأكل كما يأكل الحمار .. أن نلهو كما يلهو الحمار .. وأن ننام كما ينام الحمار، فلكم كنا حميراً أصيلة ولكن من طبقة بني الإنسان ..

ولئن كانت صلتنا بالآخرين استعماراً واستكباراً فلكم باعدت بيننا وبين الناس الشقة والمسافة .. ومزّقنا بصنيعنا سياج القربى .. وغلالة الحب ..

ولئن سبق يا «كجا» ظنك تفكيرك .. شكك إيمانك .. وخديعتك وفاءك .. وكدرك صفاءك .. فلكم قبرت بيديك روحك .. عقلك المفكر الكبير، وإنسانيتك التي أوجدها الله لك لتعيش في وارف ظلالها شخصاً متكاملاً عادلاً .. وأصيلاً ..

ولئن سبقت عينك الإغفاءة .. لئن طلبت مآقيك النوم دون أن تدع للصحوة متسعاً من حياتك .. ومتسعاً في حياتك .. متسعاً للإنتاج .. ومجالاً للحركة .. فلأنت حي ولد بلا روح .. ومن ولد بلا روح فهو ميت وإن كانت له أنفاس الريح العاصفة المجنونة.

ولئن كنت يا «كجا» عملاقاً في طولك .. محيطاً في حصيلتك من المال .. يقصر يوسف بن يعقوب دونك جمالاً وبهاء .. وكانت لك مع ذلك

سمة الأنانية.. وطابع الشح.. وقصر اليد.. فلأنت أحلك من الليل.. وأقصر خلق الله إنساناً وخلقاً..

ولئن كنت يا «كجا» تملك رقّة اللسان.. عذوبة النطق.. وسلاسة الحديث.. تملك ذلك كله.. ولكنك تملك مع ذلك كذب الحديث.. اختلاق الألفاظ.. فإن تلك الرقة.. تلك العذوبة.. وتلك السلاسة إنما تجسد القتاد.. وإنما تصور الحراب الرعناء وهي تمزق أحشاء الفضيلة.. وخفقة الوجدان والضمير..

ولئن كنت يا «كجا» ترى في نفسك.. في بيتك.. في كنوزك وفي أفقك الفردي عالماً لا يصلح لأحد.. بل لا ينفرج لأحد غيرك وغير من تهواهم فقط ممن لا يزيدون في رصيد وحدتك إلا الوحدة.. ولا في محيط عالمك إلا الفراغ.. لئن كنت ترى في نفسك ذلك فإن في عزلتك.. في صدودك.. في امتهانك لغيرك ألف حساب وحساب، كلها نقمة.. كلها ازدراء.. كلها صدود وكلها امتهان لك..

نعم .. امتهان لك وحدك أنت.. ومن إخوانك الناس..

ولئن كنت لا ترى الدعوة إلا للقوة.. وبالقوة.. لئن كنت ترى أن فقرك. أن ضعفك.. وأن هوانك على الناس ينتقص من جوهر دعوتك.. من كبريائها ومن غلوائها. فلكم أنت مخطىء.. واهم.. مخطىء إلى أبعد حدود الخطأ..

ولئن كنت يا «كجا» تخال الأبواب تفتح بالقوة وبالعنف.. بالشدة وبالضوضاء، فلكم أوصدت أبواب أمام أشداء حمقى كانت مفتوحة على مصراعيها لدعاة الرفق وناشدي الرحمة والرأفة..

ولئن كنت ترى الحياة مرحلة فقط.. مرحلة لملء الفراغ.. دون أن تجهد نفسك في معنى ذلك الفراغ.. معنى ملئه وبماذا يملأ.. لئن كانت تلك فقط هي نظرتك للحياة.. فلكم كانت نظرة مبتورة عمياء لا تنبىء عن إدراك..

ولا تنمّ عن وعي.. ولا تدلل عن فهم لماهية الحياة.. **فالحياة مزرعة... مزرعة يقتات منها الجسد والروح معاً.. وما غذاء الجسد إلا صالح الغذاء ودسمه.. وكما أن الجسد يا «كجا» لا ينمّيه إلا البذور الصالحة التي تنسج عش الفضيلة.. وتقوم سقيفة الأخلاق.. وتقيم عماد الحياة وجوانبها،** فكذلك الروح لا تنمّيها إلا القيم الصاعدة لإشباع حقيقة الروح.

ولئن كنت تؤمن بالسرعة في كل شيء.. لأنك في عصر السرعة.. فيجب ألاّ يغرب عن بالك.. أن بعض السرعة طيش. أن بعض السرعة ارتجال.. وأن بعض السرعة خيال وجنون.

فالحكمة يا «كجا» ليست في أن نشيد هذا البناء في أسرع وقت دون النظر إلى النتائج. وإنما الحكمة في أن نتدبر ونتملى.. ونرسم الخطوط.. وبعد هذا كله فلا ضير علينا من السرعة.

ولئن كنت تحب نفسك.. تحبها من كل أعماقك.. أعماقك الحية. تحب لها الخير.. وتنتظر لها البقاء.. فإن عليك أن توزع تلك النفس بما تحوي من رقّة ونصح.. وعطاء وسماحة.. توزعها على إخوتك ممن يأنسون بالرقة.. ممن يحتاجون إلى العظة والنصح.. ممن يفتقرون إلى العطاء وإلى الغذاء.. وممن يكون لهم من سماحتك دثار يهدىء من نفوسهم الثائرة.. ومن أعصابهم المضطربة المكدودة..

لئن كنت يا «كجا» إنساناً تحب الحياة لا لتأكل ولكن لتعيش. فخذ من مرارة المرض سياجاً للصبر.. وخذ من حرارة النار احتمالاً للمكاره.. وخذ من رقّة الدموع تعبيراً للرحمة.. وخذ من بسمة الصغار تصويراً لبراءة الحياة.. وخذ بعد ذلك كله من الحياة نفسها.. من كل انفعالاتها.. وحالاتها دروساً، لا لتملأ بالك بالارتباك.. ولكن لتفسح في بالك البال.. لتجعل منك قاموساً حياً يحوي الصبر.. الحذر.. الرقّة..

الصفاء.. ويحوي إلى جانب ذلك كله الاستعداد لكل طارىء أو جديد.. ولكن من أجل الحياة.

لئن كنت تقدر الحياة.. تقدر حياتك.. حياة إخوتك البشر.. تزن لها القيمة.. وتدافع عن ساعاتها التي تمر فترتمي في أحضان الزمن البعيد دون أن تملأ بجلائل الأعمال.. دون أن تذهب مثقلة في موازينها.. فإن عليك أن تثبت حياتك عملاً.. وقولاً.. أن تكون لبنة في صرح التاريخ التليد.. لبنة ثابتة قوية لا تتحطم.. وإنما تسخر من المعاول وعوامل الهدم والتخريب..

ومن كان حياً.. جاء له كل شيء راضياً بما يهوى.. إلا الموت فإنه يأسف لتسلم أرواح الأحياء.. لا بقتلها، ولكن بتجريدها من أجسادها فقط. وجسد فارقته روحه أزهقت منه الأنفاس.. قبرت معنوياته.. مات.



الدجاجة الفاضلة

صديقي «الكجا»

في الدجاج كما في الإنسان وغير الإنسان يوجد خير وشر.. انتقام وغيرة.. استعمار واستكبار.. رحمة وعدل.. والذين يبصرون ولو ساعة عالم الدجاج.. يبصرونه وهو يعج و يضج.. يتآلف و يتنافر.. يدركون مدى الشبه الكبير بين عالم وعالم..

بين عالم يعمره الإنسان بفضيلته ورذيلته.. و بين عالم آخر يعمره الدجاج برحمته.. و بظلمه.. ولو لم يكن في حياتنا الخاصة قصة دجاجة — إنسانة — إن جاز أن يعطي لها هذا الوصف.. لما حكمنا.. ثم لما علمنا دجاجة صغيرة يا أخي ولدت.. ثم نمت كما ينمو كل طفل صغير يحوجه الحنان.. و يفتقر إلى الحب.. ولكنها على غير ما يولد الإنسان، ولد معها مجموعة كبيرة من أقرانها في مثل سنها.. وكان لها وحدها من أمها النصيب المر.. الباكي!..

لم تعطف عليها أسوة بإخوتها الفراخ.. بل لم تدعها وحيدة طريدة وكفى، تنعم في ظلال وحدتها بالطمأنينة والأمان، وإنما لاحقتها بمنقارها الطويل، وأحكمت في جسدها الصغير مخالبها عضاً وفتكاً وإيذاء. وفزعت الدجاجة الصغيرة من عالمها.. من إخوتها.. من أمها.. كانت تبصر الموت كلما نظرت إليها أمها، وفي عينيها يحدق الموت الأصفر.. و يطل عليها مروعاً مفزعاً.. ومن أجل الحياة التي تخاف الموت كانت تهرب من أمها.. من إخوتها.. كانت تلجأ إلى أحد أفراد أسرتنا، وكأنما كانت تناشده النصرة.. الإنقاذ.. اللجوء من عذابها الطويل.. المتلاحق..

وكانت لها الرحمة.. لقد نصرها.. وأنقذها من في الدار. كانت لاجئة وحيدة تحتل مكاناً صغيراً، وحدها.. ترعاها طفلة صغيرة من الأسرة.. تطعمها.. وتسقيها.. حتى ألفتها الدجاجة الصغيرة.. وألفت فيها أمًّا ثانية لا تظلمها كأمها الأولى وإنما ترحم.

وشبت الدجاجة يا «كجا» نمت وترعرعت في ظلال سلام عالمها الصغير حتى كانت تسابق إخوتها نمواً وشباباً، وبعد فترة من زمن استطاعت أن تخط طريقها وحدها لتعيش مع إخوتها رغم مكيدة أمها الدجاجة.. فقد كانت تملك القوة والدفاع.. كانت دجاجة كأمها.. ولكنها حين عادت لتعيش إلى جانب الدجاج عادت بإدراك جديد.. بتجربة قد لا يعرفها الدجاج.. قد لا يعيشها لقد عاشت وبين جنبيها رحمة كبيرة.. رحمة لا تؤمن بالتشريد.. بالطرد.. وبالأذى.. فقد تذوقت نفسها مرارة الطرد والتشريد والأذى.. وجاء دور الدجاجة كأم.. كانت أمًّا يتموج من حولها عشرات الفراخ الصغيرة.. ولكنها لم تشرد واحداً منها أو تلاحقه.. كانت تحنو عليه في أمومة متناهية رحيمة.. كانت ترعاه.. تظلله بجناحيها لتقيه أنفاس الهاجرة.. وقسوة الشتاء..

ولم تكن تلك قصتها فحسب.. لقد جعلت من نفسها أمًّا كبيرة.. أمًّا عالمية.. كما يصنع بعض أفذاذ العالم من المصلحين.. في فترات من التاريخ.

نعم.. كانت أمًّا كبيرة لغير أولادها.. لأولاد الدجاج الآخر الذين يتعرضون في حياتهم إلى الطرد والتشريد والوحدة.

اصدقني يا «كجا» لقد عشت حياتها أو جزءاً من حياتها بنفسي.. لقد أبصرتها وهي تلتف حول ـفراخـ ثلاث طاردتهم أمهم.. ولاحقتهم وكانت تريد لهم الموت.. لقد التفت حولهم تدفع عنهم الأذى.. تحميهم.. ثم تنقذهم بما تطعمه لهم من حبوب وماء..

لقد تكرر دورها - الإنساني - أكثر من مرة .. كانت أمًّا لأكثر من -فراخ-.. أمًّا لا شر معها.. لا استعمار في حياتها ولا استكبار في تصرفاتها..

كانت أمًّا .. كانت داعية سلام في عالم تتحكم فيه طباع البشر. طباع الشر.. وأحابيل القسوة والعنف. إنها اليوم.. دجاجة كبيرة.. كبيرة في قدرها أمام الحق.. كبيرة في سنها أمام الأيام.. ومع كبرها ما زالت تحنو.. تحمل جسدها الثقيل لتحمي هذا.. ولتنصر ذاك. لقد أسمتها الطفلة الصغيرة -الزعيمة- أعطتها صفة الزعامة.. وإباء الزعامة.. وكانت بحق في نظري زعيمة.. نعم زعيمة مثالية. حتى لو كانت دجاجة.

إن جميع من في الدار يحبها.. كما لو كانت طائراً جديداً من السماء.. هبط إلى الأرض.. يحمل تباشير السلام والمحبة والألفة. لا يعرف لوناً للشر.. ولا يستسيغ عملاً في سبيله. كلهم يحبها.. يرعاها.. وأكثر منهم حباً لها تلك الطفلة الصغيرة التي ما إن تدعو الدجاجة بلقبها الجديد -الزعيمة- حتى تدنو في حياء. وتواضع. وحب.. لتربض في حجرها الصغير، ومن فمها تتدفق -قوقأتها- الرخيمة الحبيبة.

إننا ندعو لها بطول العمر.. فهي سحابة من رحمة تظلل عالم الدجاج.. عالمه الصغير الذي تعيش فيه اليوم.

إنها في نظر الحياة خير ألف مرة ومرة من مجموعة من الناس لا ينصفون الحق.. لا ينتصرون لمظلوم.. ولا يعينون البائس بل ويخطئون.. ويخطئون.. وهم مبصرون..

اللهم أطل عمر الدجاجة أو -الزعيمة- كما أسمتها الطفلة البريئة.. فهي خير وبركة لنا.. وللفراخ الصغيرة التي ترحم..

أطل عمرها .. ثم ارحمها يا رب كما ترحم عبادك المنصفين من البشر حين يدركهم الموت.

هواة.. حمقى..

صديقي «الكجا»

كان رفيقاً لي منذ أن كنتُ طفلاً.. يملك سذاجة الأطفال.. ومرح الشباب.. وزهو المعجبين. في حديثه نوع من السذاجة.. وفي صمته معنى البراءة.. إلا أنه حين يغضب تجرّده تلك الغضبة من كل اتّزان.. وتسلبه كل هدوء.. جمعني به الفقر.. الفقر في حاضري وحاضره.. ثم الفراغ الذي كنت أقتل فيه روحي الصغيرة.. وحياتي الصغيرة.. كان حين لا يجدني يهرع إلى دار أمه يبكي.. وكنت حين لا أجده أهرع إلى دار أبي أبكي.. كلانا يبكي فَقْد صاحبه.. وكلانا يشكو فراق الآخر.. وليت الفقر طال يا «كجا» إذاً لكنتُ معه وكان معي.. لا تزعجني منه غير غضبة لا تلبث أن تذوب في ابتسامة نفسه حين أدغدغ جنبيه.. فيضحك ثم يضحك ثم ينسى أنه غضب...

والدموع يا صديقي «الكجا» تبدأ من هنا.. من هذه المرحلة التي سأحدثك عنها.. من مرحلة النصيب الكافر الذي يحشر الإساءة في أعماق الإنسان، و يدفع بالكفران في أغوار النفس البليدة.. من نقط الالتفات إلى النفس المحمومة العليلة بأنفاس الكبر ياء. والغرور..

لقد قفز به النصيب بعد أن استوى شابًّا تضج في كيانه دماء الثورة والفتوة.. كان يملك شيئاً من دراية.. أو قل شيئاً من حظ ساقه إلى أحد المكاتب ليحتل مكانه بمرتب ليس بالكبير ولا بالصغير.. كان يبدو في نفسه وكأنما قطع مرحلة كبيرة تباعد بينه و بين علاقته بالناس.. بين الالتفات

إليهم.. والاجتماع بهم.. وحتى التحدث إليهم. سيان في ذلك من كان لهم معه رابطة ذكر يات الطفولة والشباب.. الذكر يات التي تعني الحب.. وأولئك الذين لم يتعرف إليهم ولم يتعرفوا إليه.. كان يرى الحياة من حوله.. الحياة بما تضج به من أنفاس وأرواح.. كان يتطلع إليها وقد باتت في نظره جافة ذابلة لا تصلح لأن يلتفت إليها.. ولا أن تعار أيّها التفاتة.. اللهم إلا أولئك النفر الذين يكبرونه مركزاً ورتبة.. أولئك الذين تربطه بهم وشائج المصلحة.. وعلاقة «الروتين» اليومي الذي يؤديه دون أن يحس فيه بنشوة غير نشوة الكبر ياء التي تلعب في رأسه، فتوهمه أنه من طينة غير طينة البشر.. طينة لها قدسيتها ولها جلالها الرهيب.

وعلى الرغم من أنه لا ينسى.. لاقيته.. كانت صدفة.. لاقيته على غير ميعاد.. كنت أدري عنه جنون الخيلاء.. وكنت أعرف عنه صفاقة المغرور ين.. إلا أنني لم أكن أعقل أن يتمادى به خيلاؤه وكبر ياؤه إلى الحد الذي يرفع إليّ كفه دون حياء.. أتدري لماذا رفع إليّ كفه يا صديقي «الكجا» ؟!..

كان يطمع مني أن أهوى على كفه عناقاً ولثماً.. أن أشبعها لثماً بشفتي في ذلّة ونذالة.. أن أحني هامتي تقديساً للحظ الأسود الذليل...

وحين رفع كفّه يا «كجا».. كان ينتظر مني أن تلفحها أنفاسي ذليلة مطواعة.. ولكن أنفاسي كانت محرقة مجنونة يضرمها لهيب النقمة العتية..

لقد كانت عيناه مفتوحتين في وقاحة.. كانتا تتحدثان إليّ في نظرات يملأها الحقد والكراهية.. كانتا تطمعان في أن تذللها النظرات فأهوى كالراكع أمثل دور العبودية والرق أمام محراب المجانين.. ولكن شيئاً من ذلك يا «كجا» كان بعيد الاحتمال.. لم أقبّل يده.. لم أطأطىء له هامتي في ضراعة واستسلام.. وإنما أفهمته ماضيه.. حقارة ماضيه.. وإنما أفهمته

حاضره،نذالة حاضره.. وإنما ذكرته بأن الانحناءة (موديل) قديم أكل عليه الدهر وشرب.. نعم (موديل) واكب عصر الإنسان المفترس المتوحش.. الإنسان الجاهل المتغطرس.. ولكنه ظل بالنسبة إليّ كما هو في نظراته الفاحصة الشوهاء.. في تقطيبته الجامدة الصفراء... وفي إمعانه بالاستهتار الخفي... السخرية المرّة من فلسفة «مجنون»!!..

نعم من فلسفة مجنون!! في نظره يا «كجا».. هكذا قال عني.. وهكذا نقل عني.. وهكذا وصفني أمام جماعة من أصدقائه ممن ابتسم لهم الحظ فصنع منهم رجالاً.. رجالاً يؤمنون بلثم الأكف.. بانحناء الهامة في عبودية وذلّة..

وبعد.. يا صديقي «الكجا» ماذا سنقول في حق هؤلاء الناس.. أنصاف الموظفين.. وأنصاف الأصنام..؟ ماذا سنقول في حقهم وقد مدّوا راحاتهم لشفاه الأذلاّء المرتعشة؟!.. وقد باعوا الكرامة تحت أقدام الرق وفي سوق النخّاسين؟!..

آه من شقوة البشر يا «كجا» ما أسرع ما تنهار أقدامهم تتخاذل أمام طوفان الشهرة والشهوة.. ثم ما أسرع ما يستسلم الضعفاء إلى عتبات الرغبة الذليلة دون إدراك أو وعي.. دون أن توقظهم كرامة النفس.. ودون أن ينتهرهم وخز الضمير الحي.. ضمير الكرماء الشرفاء..

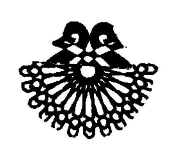
تلك هي مفاهيمنا الاجتماعية الحزينة يا «كجا» .. مفاهيمنا حول علاقة بعضنا ببعضنا الآخر.. وحول نظراتنا إلى الآخرين ممّن هم دون مستوانا مادة وجاهاً!

مفاهيمنا نحو مدّ قيود جديدة تكبّل بأغلالها روح الفرد.. وكرامة الفرد.. وحريته المطلقة منحتها له المشيئة دون أن تخضعه إرادة إنسان

عابث.. أو مستكبر.. ودون أن تطوقه حدود زائفة صنعها الشيطان ليربط فيها بين الصنم وبين المحوّمين حوله ممن تعثرت بهم خطوات النصيب والعقل..

اللهم إنّا ندرأ بسلطانك وعزّتك حماقة الشيطان وكل «شيطان».
ونبرأ إليك من كل قيود صنعها عبّاد الشهوة والتكبيل في طريق الحياة...

نسألك الحياة حرة كريمة كما أردتها لخلقك.. وكما دعوتنا إليها.. وكما عرفتنا بها، إذ هي كل ما يطمع إليه الشرفاء من خلقك يا رب.



من قاعدة الهرم لا من قمته

كل بلد في الدنيا له مظهر جميل رائع تنجاب له النفوس..

القطر الذي أخذ قسطاً كبيراً جداً من الحضارة.. والقطر الآخر الذي أخذ أو لم يأخذ حتى القسط اليسير من الحضارة أيضاً..

كل بلد في الدنيا له مظهر جميل رائع يا «كجا» تنجاب له النفوس.. فهل هذا المظهر الجميل الرائع يصح لأن يكون مقياساً لنضوج تلك الأمة.. لحضارتها.. لرقيّها!!؟ هل الشوارع الجميلة المنسقة؟ هل العمارات الضخمة العملاقة؟ هل الحدائق الغناء المورفة الظلال؟ هل كل هذا كاف لأن نقول إن بلاداً فيها شيء من هذه المظاهر.. أو تلك الحقائق عبرت طريق حياتها بكل القافلة وبكل الرواد.. على طريق السلامة؟

أنا أقول : لا .. وأعض على كلمة (لا) بالنواجذ، لا حباً وإغراقاً في السلبية والنكران.. وإنما لأحدد مفهوم كلمة (لا) من شيء أعنيه.. وأقصده..

الهرم ينظر إليه من القاعدة.. يبتدىء منها ثم تتلاقى أضلاعه لتكون رأساً هو ذروة الهرم وقمته.. نهايته..

وهرمنا الاجتماعي قاعدته لا تأتي.. لا تبتدىء من مدينة أو أكثر من مدينة، جندت لها كل الإمكانيات المادية، لتبدو أمام الرائي عروساً يطرب لها.. ويتغنى بجمالها وروعتها.. وتنسيقها..

هرمنا الاجتماعي هو كل أرضنا.. هو كل جزيرتنا.. هو تلك القرى الصغيرة القابعة بين التلال.. وفي السفوح.. وعلى مدرجات الرياح الصفراء

الغاضبة التي تهب وتدفن بذراتها أبواباً ضيقة لا تتسع لسالكيها.. وروادها..!

هرمنا الاجتماعي هو الصحراء «الخصبة» الصامتة.. الصحراء الغنية.. والفقيرة بغناها.. لأنها تعيش تحت رحمة الاتكالية.. وتحت ويلات العزوف. والانصراف! هرمنا الاجتماعي هو البادية. التي لا تطعم علماً.. ولا تطعم أكلاً.. ولا تطعم توجيهاً للكسب والإنتاج الصالح.. لأنها لا تفهم شيئاً.. ولأنها لم تفهم بعد.. هرمنا الاجتماعي يأتي من إنتاجنا.. من اكتفائنا الذاتي.. من تفجير قوانا وطاقاتنا الكامنة لنزرع الحقل.. كما نزرع المدفع لنحصد من حقله المنعة والقوة.. والبناء..

هرمنا الاجتماعي أن نكون أوفياء.. لأرضنا.. لقد أعطتنا الأرض البلايين.. أعطتنا وأعطتنا.. ووعدتنا بالعطاء الكثير.. ولكن نفوسنا غير الوفية تركت الأرض.. ذهبت لتعمر أرضاً ثانية في جحود وتحدٍّ وخيانة..

هرمنا الاجتماعي هو أن نرسم الأهداف.. أن نفكر فيها.. قبل أن نقدم على تنفيذها.. وأن تكون مجموعتنا الشعبية أولاً وأخيراً هي الغاية لتلك الأهداف لا الوسيلة.. أو السلم والمطية..

حين يسألني سائل عن بلد ما: (أزرتها؟!) لن أقول نعم ما لم تكن زيارتي لها ابتدأت من القاعدة لا من القمة.. من القرية لا من المدينة..

وحين يسألني سائل أيضاً عن حضارة تلك البلاد.. عن مدنيتها.. سأفتش عن واقع الفرد العادي الذي يعيش في الغابات.. في الجبال.. في الصحاري، وسأقول الحضارة والمدنية مستمدة من حاله.. من واقعه الذي يحياه.. لا من واقع المترفين الأثرياء..

وهكذا نحن هنا..

إن قصوراً تشيّد.. وشوارع تفتح وتخطط.. وحدائق تنمق.. في كبريات مدننا ليست معياراً صحيحاً لتقدمنا وحضارتنا، ما لم تكن عجلة

تلك الحضارة وذلك التقدم قد أخذت سبيلها إلى واقع القرية الصغيرة، لتجعل منها نموذجاً حياً متكاملاً لمعنى الحضارة.. ولشكل التقدم الذي نريده ونطمح فيه. إننا نخدع أنفسنا حين نقول شيئاً عن تقدمنا!!

أين هو ذلك التقدم يا «كجا»؟!..

أين هو إنتاجنا.. الأطعمة التي نزرعها!! الأقمشة التي ننسجها!! المصانع التي نحتمي بقوتها ونلوذ بإنتاجها؟!

حتى الكبريت يا «كجا» لا تنتجه. فهل هذا حضارة؟!
هل لدينا حضارة ؟!
حين لا يكون هنا عاطل..
حين لا يكون لدينا متسول.. أو فقير..
حين لا تجد الأمراض مرتعاً خصباً للإنتاج.
حين لا نستورد حاجاتنا الضرورية وغير الضرورية من أي بلد آخر..
حين لا نغدر بأرضنا.. فننتزع منها العطاء لنقدم لها العقوق والتمرد..!!

حين نزرع في أذهان مجتمعنا حب العمل.. وصدق العزيمة.. الوفاء.. حين تكون القرية الوادعة البعيدة الضاربة في كبد الصحراء صورة مصغرة للمدينة في كل حياة أهلها.. عملهم.. أملهم.. إيمانهم.. حقوقهم.. واقعهم الذي يعيشونه..

حين لا نستورد عقولاً.. لأن نبع العقول لدينا معطل لا مجدب.. حين يجتمع ذلك كله في واقعنا. فإننا سنصرخ في وجه الزمن.. سنلوح في وجه التاريخ.. سننشر رايتنا. وسنحكي.. سنقول: إننا أمة ذات حضارة وأمجاد.. أما غير هذا.. فلا.. لا.. وسأعضّ عليها بالنواجذ من جديد.. حتى يؤذن للنواجذ بالانفراج.

أيها الحجيج: اسمعونا أصواتكم

للحج صوت لم نسمعه «يا كجا» .. للحجيج قوة لم نرها .. فأين هو ذلك الصوت..؟ أين هي تلك القوة.. ؟

قولوا لنا يا إخواننا الحجيج.. يا من امتلأت بكم رحاب مكة.. وضاقت بكم ساحات منى وعرفة ومزدلفة.. يا من ترمون الشياطين بحجارة سبع.. وتركتم شياطين البشر. ترمي الأبرياء منكم بوابل من القنابل والمتفجرات المحرقة دون أن ترموها. قولوا لنا يا إخواننا الحجيج: أين تكمن الحكمة العظمى من الحج؟ أليست في اجتماع مسلم من الشرق بمسلم آخر من الغرب على صعيد واحد إطاره الحب.. الإنسانية.. وبث الشكوى.. وتقديم العون؟.. قولوا لنا أيها الحجيج: أي قرار واحد أصدرته جموعكم مشفوعاً بالتنفيذ.. مقروناً بالقوة الفعالة التي وحدتها مشاعركم. وجمعت بينها مبادئكم.. وسعت إليها خطاكم من أقاصي آسيا وإفريقيا إلى أقاصي أمريكا وأوروبا..؟

حج كل عام .. حج مبرور نباركه ونشاركه، ونحمد في سبيله كل شيء.. لأنه دين.. ولأنه رسالة.. ولأنه سبيل تعارف وتآلف بين إخوة فرقت بينهم البقاع، وجمعت بينهم مشاعر الدين. الإيمان والطهر.. والبناء..!

ولكن .. أين هي رسالة الحج..؟ رسالة الوحدة بين إخوة يئنون ذلّة من مستعمر.. ويئطون ثقلاً من حمل عبوديته.. ويقارعون النار والحديد في ميدان هم وحدهم فيه عوامل الكفاح والاستبسال.. والدفاع..!

أين هي الوحدة في المجهود الإسلامي الذي نادى له الحج ودعا إليه؟ أين هي المشاكل التي تتعرض لها بعض بلادنا دون أن نحلها.. دون أن نجمع

حولها كلمة واحدة. أو رأياً واحداً ينفذ من طور الفكرة إلى طور التنفيذ.. إلى دور المعالجة والحل السريع.

نريد أن نسمعها كلمة لأكبر مؤتمر إسلامي دعا إليه الدين.. ونادت به الشرائع.. وهتفت له قلوب ملايين الملايين من كل جنبات الدنيا.. نريد أن نأخذ الفلسفة من كل شيء جاء به الحج ودعا إليه..

فالشياطين التي نرميها بالحجارة رمز لكل شيطان يتحكم بعاطفته وبهيميته في كل زمان.. وفي كل مكان.. وعلى أي صورة وشكل.

وما أكثر الشياطين يا إخوتنا الحجيج ممن تحكّمت عاطفتهم وبهيميتهم في مقدرات الشعوب، فراحوا يسخرون حماقاتهم.. وجنونهم. و يصبّونها شواظاً من نار على صدور الأبرياء من إخوتنا في الجزائر. في فلسطين. في عمان. في عدن. والجنوب.. وفي كل مكان من الدنيا تتحكم فيه المطامع والنزعات البهيمية الصفراء الرعناء..

ما أكثر الشياطين يا إخوتنا الحجيج! فأين هي حجارتكم لتلقوها عليهم متّحدين مجتمعين؟.. أين هي كلمتكم لتصبّوها عليهم حانقين مستبسلين؟ إنكم لو فعلتم ذلك في حرارة الإيمان.. وفي قوة المؤمن المجالد لَمَا كان هناك شعب مشرد يملأ كهوف تونس ومراكش. وإخوة له يعيشون في مغارات الأوراس، يكحل مآقيهم بريق القذائف.. ويشنف مسامعهم أزيز الطائرات، ولعلعة المدافع الجبارة وهي تطعن السكون في جنون ووحشية.. وتمزق المدافع الجبارة صدوراً كل ذنبها أنها تدافع عن وطنها!

إنكم لو فعلتم ذلك في حرارة الإيمان.. وفي قوة المؤمن المجالد لما كان هنا في قلب الشرق.. وعلى مسمع من قبّة الصخرة المقدسة دولة بغي وإثم وعدوان في أرض عربية.. تمتص من دماء عربية.. وتبيت السوء لكل عربي ومسلم.. دولة أقامها أعداؤنا لتكون خنجراً مسموماً يهدد كياننا الإسلامي.. وكياننا القومي. ومثل الجزائر.. ومثل فلسطين يا إخوتنا

الحجيج يعيش أبطال عمان الثائرة.. وشعب عمان الصابر.. أبطال الجنوب العربي. وأشاوس الجنوب العربي يقارعون الخطوب.. و يقدمون الضحايا. و يناشدون كل مسلم حر النجدة.. النخوة.. فأين أنتم يا إخوتنا الحجيج.. يا وفود بيت الله.. يا من لبّيتم داعي الله؟

إن أسلوب الحق وحده هو السلاح.. ونحن نملك الحق في كل هذا، فأين هو سلاحنا لنشهره في وجه خصومنا غير هيّابين ولا وجلين؟.. ليتكم يا إخوتنا الحجيج وأنتم تلبّون داعي الله للحج.. لبّيتم داعي الوطن للجهاد، كلاهما صوت انطلق من رحاب الحق ليملأ الأرض عدلاً. وحباً. وإيثاراً.

اجعلوا من حجكم يا إخوتنا ما أراده الدين أن يكون.. اجعلوا منه مولد ثورة على كل فساد.. مولد قوة على كل بغي.. مولد قبس على كل ظلام.. مولد عدالة على كل تحكم وجور.. مولد حياة وحركة على كل ركود وخمول..

اجعلوا من حجكم مؤتمراً دونه كل مؤتمر.. دونه مؤتمر الأقطاب.. أو الأذناب.. دونه كل اجتماع يعقد.. ودونه كل اجتماع عقد.. فخير المؤتمرات وأبرها ما كانت فيه مشاعر الملايين وأحاسيسهم الصدى الذي تهتز له جنبات المكان.. وتتجاوب له أركانه صدى قو ياً خلاقاً..

أمْلوها قرارات لا تعرف الخور ولا الذلة.. وخير القرارات تلك التي تتحدث عن نفسها بالأسلوب الذي يفهمه منطق هذا العصر.. عصر التنفيذ.. عصر الإملاء.. والإشباع..

إنني لا أستثير العواطف.. إنني أشير إلى فكرة آمنت بها كمسلم، فسقتها إليكم يا إخوتي الحجيج كمسلمين. وأنتم في موجكم الزاحف الهادر أمام بيت الله.. وأنتم في زحفكم الصاعد لتقذفوا الشياطين بالحجارة.. إنني فقط أذكركم بشياطين الإنس وقد ذكرتم شياطين الجن.. فلترجموهم يرحمكم الله..

وأيضاً.. العيد

قل لي أي شيء هو العيد يا «كجا».. إن لم يكن هو الشعور بالحياة.؟!

قل لي أي شيء هو العيد. إن لم يكن هو إحساساً بالمسؤولية.؟
قل لي أي شيء تعنيه أعيادنا.. إن لم يكن ذلك الشيء إدخال الفرحة على قلب حزين.. إعادة البسمة لشفة لا بسمة بها.. سَلّ الضغائن والأحقاد من قلوب الناس. مدّ يد الأخوة.. الحب.. الصفاء.. إلى كل الناس!؟

العيد.. لم يكن مظهراً نحتفي به.. لم يكن أياماً نقتلها ابتساماً وشبعاً.. وإسرافاً في اقتناء الحلل الجميلة المزركشة..

العيد .. لم يكن دلالة على موائد تمد هنا.. وهناك.. لتتخم منها بطون يوماً أو يومين.. ثم تختفي تلك الموائد.. لأن إسراف العطاء.. ولأن إسراف البذل لا يفد إلا مع نشوة العيد.. وأفراح العيد.. وزغردة العيد..

العيد .. إن لم يكن منبعاً للرحمة.. مرتعاً للخصب والخير في أخلاق الناس.. في طباعهم.. في علاقاتهم البعض للبعض.. فماذا سيكونه العيد حين تطوى عليه جوانحنا إشفاقاً.. ولهفة.. ووداعاً!؟

أعيادنا تمر.. وتمر معها مآسينا.. تمر معها طباعنا.. يمر معها شحّنا.. قحطنا.. بخسنا لحقوق بعضنا البعض.. ثم لا ننسى في صفاقة وخيلاء أن نخادع أنفسنا.. نخادع غيرنا بأننا كنا في عيد..

الجيوب الخاوية التي تضج فقراً وإملاقاً ندعها فريسة لفقرها وإملاقها..
الجيوب الخاوية التي تتحدث عن ذكريات مرة حزينة ندعها كما هي لذكرياتها.. لمرارتها.. ولحزنها..

الدموع التي تذرف تظلماً وتوجّعاً.. هي نفسها الدموع التي لا يكفكفها عيد، ولا ينقذها عيد من تظلمها وتوجعها..

النفوس المريضة التي تنبش الضغائن.. وتبني الأحقاد.. لا يهذبها عيد حل.. ولا عيد رحل.. ولا عيد منتظر.. وكأنما كان فهمنا للعيد انطلاقاً من ربقة المسؤولية.. انطلاقاً من الوعي الذي يحدد المفاهيم.. ويصحح الأوضاع..

أي عيد يا أخي نحتفي به.. ونستقبله.. ونرتمي في أحضانه..؟!

إن فينا من لا يملك فرحة العيد.. لأن وحشيتنا.. ولأن قسوة الأيام جرّدته من كل شيء.. إلا من الألم والتوجع..

إن فينا من تظلّله كآبة اليتم.. وسحابة الخشية والخوف.. فلا يرى في عيد حلّ إلا فترات قاسية تباعد بينه وبين واقع غيره. ساعات ظالمة تشعره بأنه خلق للشقاء والترح.. وخلق غيره للسعادة والمرح.

إن فينا من تلقّفتهم الأكواخ والمغارات الجبلية حين لم يجدوا ملاذاً وسكناً.. فينا اللاجئون ممّن يعيشون على ذكريات الماضي البعيد في انتظار العودة. يصارعون في تشرّدهم غضبة الرياح المسعورة. هزّة الأحداث الدّامية.. البرد.. القائظة. الجوع. العرى. وأشباح الموت وهي تملأ آفاق دنياهم أينما توجهت أنظارهم..

أين هؤلاء الإخوة اللاجئون من أعيادنا التي نقضيها. ونحن نتغنّى بلذّة العيد وبمتعة العيد. إن فينا من تمضي أيام أعيادهم وهم مع المنيّة على لقاء.. مع الكفاح على موعد.. فحين تدق طبولنا نشوة بلقاء العيد.. ترقص أجسادهم وتتساقط على مذبح الحرية والحياة. لأن العيد كما عرفوه.. شعور

بالحياة.. إحساس بالمسؤولية.. بذل وعطاء. بناء. واستجابة.. ثم.. ونحن هنا نحتفي بالعيد.. هل نجد لدينا عيداً نحتفي به؟.

لقد ساءلت نفسي: هل وجدت عيداً..؟ فأجابتني بكلمة ممطوطة طويلة: لا..

إن أعيادنا كسل.. ملل.. ونوم لا ينقطع.. بحث عن أفراح لم توجد.. لأن أعيادنا لم توجد..

كل ما نكسبه من أيام العيد يا «كجا» هو أننا نشبع نوماً.. نتخم من الإغراق في السّبات الطويل.. فهل هذا في نظر الأعياد كسب يجب أن نعلنه في فخر ونتحدث عنه؟

إن أعياداً لا تَهِبُ إلا الملل. إلا الكسل. وإلا الإغراق في نوم طويل هي نفسها الأعياد التي لا تكفكف دمعاً.. لا تبريء جراحاً.. لا ترد ظلامة.. لا تدفن حقداً أو كراهية.. لا تشيع بين الناس روح المحبة والأخوة. والألفة.. هي نفسها الأعياد التي تمر بنا كل عام.. أو نمر بها.. ولكننا لا نتفق معها على هدف أو معنى.. لأننا لم نعرف بعدُ معنى الأعياد.. في قاموس الحياة الحي..



المنديل الحلو

الزمان : ١٣٨٠/٧/١٣

الوقت مساء..

المكان : شارع الملك عبد العزيز (البطحاء) بالرياض:

البطل : شاب يقود عربة (حنطور).. عمره دون الثلاثين وفوق العشرين..

لاقيته «يا كجا» وكان حماره الشاب ينهب الأرض بخطاه الواسعة وهو يسحب العربة الخشبية التي تراكمت فوقها بقايا من أسمنت وطعام. وآثار فحم.. متجهاً نحو الجنوب.. وكان يغني بصوت فيه رنّة الظّفر.. والفرحة والكسب..

كان يغني أغنية طالما سمعناها من حنجرة «عبد العزيز محمود».. المطرب المصري المعروف.

كان في يده كيس من الخيش يملأه الغبار.. وتتناثر في لوائحه شقوق وثقوب صغيرة!

كان الخيش القديم في قبضته اليسرى.. وعصا حماره في كفّه اليمنى.. وكان يغنّي..

«منديل الحلو.. يا منديلي»!

والتفتُّ نحوه.. وكنت أبتسم.. ولاحظ الابتسامة التي تبرّجت فوق شفتي.. وقال: «ما الذي يضحكك»؟!

واتسعت رقعة البسمة على وجهي.. كان كل شيء من وجهي يبتسم.. فمي .. عيناي .. وحتى ملامح الكلمات التي كنت أجيبه بها وأنا أقول له: «المنديل الحلو.. أهذا المنديل الحلو الذي تناجيه؟.»

وحاول حماره أن يتخطّى مكانه.. لعلّي أزعجته بكلمتي تلك فضاق بها.. إلا أنه زجره ليقف.. فوقف الحمار مكانه في أدب وطواعية!

والتفت الشاب إليّ وعلى ملامحه أكثر من معنى واحد للتساؤل.. وقال:

«وهل أنت أعمى بحيث لا تبصر شيئاً أمامك؟»

وقلت له: «لو كنت أعمى لتخيّلت أن في يمينك منديلاً تغنّى له.. ولما ضحكت..»

وحملق في وجهي بسرعة ونهم.. ثم ضحك.. أطلقها ضحكة مسموعة من فمه.. وقال:

«وماذا في يدي.. إن كنت صحيحاً تبصر؟»

وأجبته.. «في يدك كيس من خيش وبه ثقوب.. هذا كل ما أرى، أليس كذلك..؟»

وهز رأسه في تعجب وإشفاق وقال:

«وأي منديل تريدني أن أغني له أيها الرجل؟.. ألِمنديل القُبل وأحمر الشفايف؟! أللمنديل الأبيض الذي تجففون به أيها المتمدنون المترفون عرق تواكلكم وتكاسلكم..!؟.. أم لهذا المنديل الخشن الكثيف الذي أمسك به في يدي فأكفكف به عرق الحاجة.. عرق الجوع.. وعرق السعي الحلال المتواصل؟!. إن هذا الخيش الذي في يدي لو تكلم لقال لك إنه أبلغ منديل.. وأوفى أداة تجفف بواسطتها كل مظاهر الإعياء.. والجوع والحرمان!»

ولاحظ أن البسمة العريضة التي كانت تغطي وجهي تحولت في سرعة إلى بسمة أخرى لها معنى آخر.

بسمة غرابة وعجب. تحولت إلى بسمة ثقة وإعجاب! وقال لي، وكان يحك شعر رأسه المتناثر فوق هامته بقبضته اليسرى الخشنة..

« وما هو رأيك بعد الذي قلته..؟.. هل عرفت المنديل الحلو؟..

المنديل الذي أحمل به.. المنديل الذي يعينني.. المنديل الذي يغنيني عن مناديلكم أيها المتمدنون المترفون.. وعن صدقاتكم أيها البخلاء..»

وأدرك من هزّة رأسي أنني عرفت المنديل.. وأنني أبصرت المنديل الذي كان يغني له بكل عمق.. أدرك أنني اقتنعت بشيء قاله.. أنني أفحمت أمامه.. ورفع فجأة عصاه القصيرة وأهوى بها فوق ظهر الحمار الشاب الذي راح يطبع خطاه السريعة على إيقاع النغم الجميل.. على الصوت الواثق الذي تملأه رنّة الظفر، والفرحة والكسب.. وكان يغني من جديد وقد أمسك في يساره بكيس الخيش المملوء غباراً وشقوقاً:

«منديلي الحلو.. يا منديلي»

هذه يا أخي قصة مواطن فيلسوف تضاءلت أمامه كل أفكاري وخواطري.. كنت أمامه كالطالب الصغير أمام أستاذ كبير مملوء فلسفة وعمقاً ودراية..

لقد آمنت أن هذا الشاب فهم «المنديل الحلو» أكثر مما فهمته وفهمه الكثير من الناس.. فهمه.. وغنّى له في حب لأنه، منديل لا كالمناديل التي نملأ بها جيوبنا لنجفف بها عرق الفشل، أو الخجل، أو التواكل.. ولكنه منديل خشن كثيف يجفف به ومنه عرق الإعياء.. والجوع.. والحرمان.. يقضي به على ذلك العرق ومن أجل مواصلة الكسب والكفاح في سبيل لقمة العيش الحلال.

لقد أحببت تلك الرغبة لشيء واحد فقط.. هو أنها تذكرني بقصة ذلك الشاب.. وبالمنديل الخشن الذي يمسك به في يساره.. وبقصة كفاح مشروع.. وفهم رائع لسبل الكسب والكد والعمل..

إنني أتمثل دائماً ذلك الشاب.. وذلك الخيش.. وذلك الحمار المكافح.. ثم ذلك الصوت الواثق بمستقبله وبنفسه وهو يغنّي.. ويغنّي.. في ثبات، وإصرار وعزم..

«منديلي الحلو.. يا منديلي» !

افتحوا عيونكم المطبقة أيها الآباء

افتحوا عيونكم المطبقة أيها الآباء

نعم افتحوها أيها الآباء لعلكم تبصرون.. افتحوها فطريق الأنين طال.. وجدول الدموع امتد.. وهتافات الجزع والفزع ملأت عنان السماء تلعن الظلم والظالمين..

افتحوها أيها الآباء.. وأطلّوا منها على الواقع الذي نعيش فيه على أعصابنا.. ونرتفع فيه على أوصابنا.. ونجنح فيه عن جادة العقل. وعن طريق الرحمة والإنصاف!

الفتاة نسوقها إلى زوج لا تريده.. لا تطيق الحياة معه.. إقدام على خطة انتحارية متعمدة.. ورهيبة!

الفتاة في العشرين من عمرها يا «كجا» أو أقل نبيعها لابن السبعين أو الثمانين، تحدٍّ لكل المشاعر الكريمة البريئة التي ولدت وراحت تتدرج على سلم الشباب.. وتسبح مع أطيافه في انتظار الفأل الشاب.. الفأل الذي يغمرها فرحة.. ويعمرها حياة.. وينصفها حباً..

الفتاة في العشرين من عمرها أو أقل نختار لها الطريق.. نملي عليها الجادة التي هي من حقها دون أن تختار.. ودون أن تقبل.. ثم لا يهمنا وقد ملأنا جيوبنا بالثمن.. لا يهمنا مصير تلك الفتاة مع زوجها الهرم المحطم الكيان.. أو مع زوجها الشرس المحطم الإنسانية.. لا يهمنا أن نقتات من دموعها.. أن تسهر مع النجوم لتناجيها بمآقٍ ملتاعة حزينة وبإجهاش مر لا ينقطع، لا يهمنا أن تفقد السعادة، أن تفقد الرحمة.. أن تطرد من بيتها لأنها

ناشز، ليمكن قبض ثمن لها من جديد في زواج آخر.. لا يهمنا أن تفر لترتمي في أحضان الخطيئة؛ لأنها افتقدت وهي الشابة المتفجرة البراكين، افتقدت دفء العاطفة.. وسمات الشباب، وابتسامة الأمل في شيخ محطم، تنمّ نظراته عن شبح مذعور هبّ من بين مقابر الموتى..

لا يهمنا أن تنقم من حياتها.. أن تفكر بكل القيم بعد أن تجاهل والدها أو غير والدها الاستجابة لقلبها.. لدموعها.. وهي تتوسل إليه ألاّ يقدمها قرباناً لمذبح أطماعه.. فتتعذب.. وتذوب وقد صهرتها الليالي السود.. وأماتت فيها كل رجاء.. وحب.

لا يهمنا أن تنسى كل فضيلة لأن الفضيلة في حبها.. وفي قلبها.. وفي إرادتها للحياة قد نحرت على أيدينا ونحن نعلم.. ونحن لا نعلم..

لا يهمنا أن تنتحر وتلقي بنفسها في بئر.. أو من فوق سطوح المنازل كالذي أوردته مشاكل كثيرة لنا تضمها قصص الشاكين.. وأوراق الباكين.

لا يهمنا أن تهيم على وجهها وقد فرت من سجنها الذي سيقت إليه كرهاً! ثم لا يهمنا نتائج التشرد وما تجره من ويلات وخطوب وبلايا.. كل شيء نسيناه أيها الآباء.. أو تجاهلناه.. عفا الله عنّا..!

نسينا أن الجرائم الخلقية.. الكثير من تلك الجرائم تنبت من مزرعة أعمالنا وإهمالنا لحقوق فلذات الأكباد.. حين نسوق عذراء بريئة في عمر الزهور.. وفي تفتح الحياة، نسوقها إلى هيكل متهالك محطم، تشهد له بالحياة فقط عيناه الشاحبتان الضيقتان المتراقصتان.. وخطاه.. خطاه المجهدة المكدودة..

نسوق تلك الوردة المتفتحة إلى عود يابس حناه الخريف، ثم يقول لتلك الوردة: «املئي شفتيك قبلاً.. وقلبك أملاً.. وعرضك عفّة وطهراً!»

وأنّى لوردة متفتحة أن يطفىء لهيب حبها وقلبها عود مقوس لا مجرى فيه لماء الحياة وروائها.. أنّى لشابة في الخامسة عشرة أو في العشرين من عمرها أن تجد السعادة التي تهفو إليها.. الحب الذي تنشده من جسد بارد يقف على حافة القبر مواتاً وتبلداً.. ثم ننسى كل شيء عن تلك الفتاة.. ننسى أن لديها طاقة مكبوتة من طاقات الجنس.. طوفاناً سينحدر إن لم يجد السد الحكيم العظيم الذي يحفظ عليه التهرب والضياع.. ننسى أيها الآباء كل شيء عن الفتاة.. ننسى أمانيها المقبورة.. أحاسيسها المكبوتة.. أصواتها المبحوحة.. دموعها الصامتة.. تظلمها من شبح لا تجد لديه كل ما تريد.. ولا بعض ما تريد.. ننسى ذلك.. ثم نطالبها أن تلتزم العفّة فلا تزني.. الطهارة فلا تعصي.. الحصانة فلا تتلوث.. وكأنما كنا بالذي نرتكبه في حقها ندفعها إلى الزّنى، إلى العصيان، وإلى التلوث.. إلى كل شيء ينكره الدين ويجازي عليه..

ليتنا تذكرنا الأحداث وما يجري.. ليتنا لا ننسى.. ليتنا لا نجهل الأمس القريب وقصصاً من الأمس القريب، كلها تتحدث عن امرأة وأكثر من امرأة باعت فرجها للشيطان ورجمت.. لاقت جزاءها، لأنها وهي المرأة المشبوبة الجسد سيقت إلى ابن السبعين أو الثمانين.. ولما لم تجد لديه ما يطفىء لهيب جسدها.. ولما لم تستطع كبت جماح ذلك الجسد راحت توزع عفتها بين شيطان وآخر، لتنسى في جسدها كل شيء إلا رغبة الجنس.. إلا نداء الجسد.. وكان ما كان من نهاية لكل من باع جسده للخطيئة طائعاً أو مكرهاً..

أيها الآباء شيئاً لله.. شيئاً لشريعتنا السمحة التي تفرض على كل أب أخذ رأي ابنته.. وموافقتها فيمن تتزوج..

إن الزوج لها .. ليس لنا.. فلِمَ نفرض عليها زوجاً لا تريده لأنه في

عمر جدها الطيب الذكر.. وعمر جدتها التي لا تعي ما يدور حولها من حياة؟

إن الزواج لها.. ليس لنا.. فلِمَ نفرض عليها زواجاً لا تريده.. لأنها تبصر فيه صورة المأتم.. وتشييع الروح.. وقبر الجثمان أمام جدران التردّي والتحدّي؟

أنصفوا أيها الآباء واقع بناتكم.. هَبُوا أيها الآباء —على سبيل ضرب المثال— هَبُوا أن المرأة هي التي تخطب الرجل وليس لأحد من الرجال حق في أن يختار الزوجة.. هَبُوا أن والد أحدنا جاء إلى ابنه البالغ من عمره ثمانية عشر عاماً وقال له:

« إن فلانة جدة فلان.. أو أم فلان، والتي تبلغ من عمرها السبعين جاءت تخطبك.. وليس لك إلا القبول..».. هَبُوا، أو تخيلوا أن شيئاً من هذا جرى بالنسبة لأحدنا.. ماذا سيكون موقف ذلك الشاب.. نعم.. وكيف سيتصرف شاب دون العشرين حين يوحي إليه أن عجوزاً ملأت وجهها التجاعيد خطبته وستتزوجه، سيزف إليها على الرغم منه، لأن والده قبل تلك الخطبة طمعاً في مال تلك المرأة.. ولأن ذلك الشاب لا يملك من أمره شيئاً..

نعم أقولها للمرة الثانية.. هَبُوا أن أحدنا هو ذلك الشاب.. كيف سيتصرف؟ إنكم تعرفون أيها الآباء.. تعرفون جميعاً كيف سيتصرف.. سيقتل نفسه.. أو سيقتل زوجته العجوز الشمطاء التي فرضت عليه حبها وهو لا يحبها ولا يطيق لها شمًّا ولا اسماً..

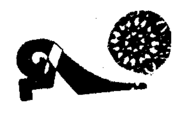
وحين لا يفعل ذلك مع نفسه، ولا مع عجوز خطبته وزوجته، فإنه لن يرعوي في أن يبحث كل يوم عن امرأة يرتمي في أحضانها ليشبع رغبة جنسه،

ولينسى ساعتها الصورة المريعة الموحشة التي تنتظره داخل عتبة داره.. في بلادة، وموات، ووحشة..!

وحين لا يقوى على شيء من ذلك كله.. فلن يعجزه الفرار من نار تحترق بها أعصابه في بطء ومرارة مدى الحياة..

قلت الذي قلت أيها الآباء.. كي يعرف كل واحد منا أحاسيسه حين يتجرع مرارة النكبة، وحرارة المأساة والفجيعة.. فكلنا بشر.. الذكر والمرأة أخوان.. سيان في أحاسيسهما.. في عواطفهما، في رغبتهما.. وفي بحثهما عن السعادة والحب.. عن الزواج المثالي السعيد!

وإذاً فلنتق الله.. أيها الآباء.. ولننصف فلذات أكبادنا في حقٍّ شَرَعه الدين.. وأيده العقل.. وطالبتنا به مسؤولية الحياة.. وروح المجتمع.. وعامل بناء التكوين الصالح..



خواطر عن الإنسان

مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»

سذاجة.. ضعف.. تخاذل.. ومع ذلك كله طغيان.. عبودية، وتقديس للذات.. عبادة الأطماع.. أبداً لا يعترف بخطأ، فهو في منظار نفسه كما يراها أنموذج رائع للكمال وللجمال..

أبداً لا يؤمن لغيره بالحق، فهو يرى كل شيء من نصيبه.. من نصيبه وحده.. فقط.. وأبداً لا يرحم وكأنما كان في الأرض.. وكأنما وضعته الإرادة جلاداً.

ينتزع من يده الموت للناس..

ومن أنفاسه اللهب للناس..

ومن خطاه الرجفة للناس..

مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»

نسي أنه مخلوق فتعالى على البشر، على الضعفاء، ولا نقول على الضعف!

نسي أنه أداة صغيرة ساذجة مزجت بمادة الاختبار فظنها الاختيار، وساقته أهواؤه.. دفعته إلى الإجرام.. الخطيئة والكفران.

ونسي أنه إنما خلق ليعمر الأرض..

فإذا بذلك المنجل يحوله إلى صاروخ..

وإذا بتلك الدابة الهادئة البريئة يحولها إلى قاذفة لهب..

وإذا بطريق الحياة.. طريقها الرهيب تملأه القوى الكافرة.. معاول الفناء والدمار.. الحديد والنار!..

وهكذا فهم (الإنسان!!) الساذج الحياة لهباً وناراً..
ونسي أنه الضحية.. الفريسة لذلك اللهب ولتلك النار..
الضحية التعسة الذليلة الهوجاء..
مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»

وهو في فقره يقدس الفقراء. و يلعن المادة، ولكنه وقد أشبع بالمادة أبداً لا يؤمن بفقر. وإنما ينسى ذلك كله ليعمر في قلبه سلطان المادة.. وفي هيكله هيكلها.. صرخات الجشع. النهم. العربدة والمجون..

«مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»
وهو في حاجة إليك يقبّل الأرض بين يديك.. وحين لا يحتاج إليك -حتى لو كنت في غنى عنه- سيشهد في شبحك الصاعقة.. صورة الأبالسة.. الشياطين.. ولن يرد عليك السلام.. حتى السلام وهو بلا ثمن، فهو في غنى عنك.. نعم في غنى عنك حتى بالسلام!

«مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»
يعرف وهو القوي أنه أخطأ، تعمد الخطأ، فيأبى أن يقر في حقه الخطأ.. وحين يخطىء غيره تثور من حوله زبانية العذاب.. تزجره.. يلفه الظلام الثقيل.. ولِمَ!؟ لأنه ضعيف، ولأنه أعزل، ولأنه لا يملك أن يقاوم.. ليس بقوي..

مسكين.. وألف مسكين.. هذا الإنسان.. «يا كجا»
ثار مع أهوائه فستر عن عينيه وعن قلبه اشعاعات اليقين والعقل.
وثار مع نزعاته التي استمدها من شرعة الغاب حبًّا في حلكة الأفق! (مفاهيمه السوداء) ومطامعه السوداء.. وتجاهل.. نسي أنه إنما خدع نفسه..

وخاصم الفكرة.. قيّدها.. فبدت من حوله طريحة لا خيوط لها.. كليلة

لا خطوات لها.. وعلى الرغم من كل هذا.. من كل هذه الأخطاء تصك أذنيه في صفاقة ترنيمته الحمقاء.

«أنا إنسان!»

مسكين.. وألف مسكين.. هذا الإنسان.. «يا كجا»:
أحبَّ نفسه.. ذاته، فكان هو (الحب المريض الأهوج)
وقدس هيكله الفارغ. فكان الشبع من نصيبه.. وحين سأله سائل:
«ونحن؟!» أرغى وأزبد. فليس من حق غيره أن يسأل.
مسكين.. وألف مسكين هذا الإنسان.. «يا كجا»
عرف الدنيا فكانت له مطيّة..
وعرف المبدأ فاتخذ منه لمطامعه شراكاً وشباكاً..
شيطان في صورة بشر..
في صمته يطل الفزع..
في هدوئه تزمجر العاصفة.
في بسمته ترقص التكشيرة.
في قبلاته ألسنة اللهيب المحرق.
مسكين.. وألف مسكين.. هذا الإنسان!.. «يا كجا»

يرى في ذاته الكمال.. الكمال بكل صوره وألوانه.. وحين تعرِّفه نفسَه.. حقيقته التي نما منها.. إليها.. أصله الذي أوجد منه في ضعف.. لا تجد من أعماقه.. أعماقه المجنونة غير هذا الصدى.

«أنا إنسان»

مسكين.. وألف مسكين.. هذا الإنسان.. «يا كجا»

يعرف الخير، ولكنه يحب الذات.. وفي حب الذات تتلاشى بوارق الخير..

تجده الإنسان الطيب.. مع الفقر، وعند الحاجة!
وتجده المَلَك المرهف المشاعر فوق بساط الألم.. عند حرقة الأنفاس!

ولكنه حين يجد المال، ولكنه حين لا يلمّ به ألم، يتقمص الغول شكلاً وحقيقة! يمتص دماء البؤساء.. ويمتص البقايا الباقية من أنفاس (المصدورين)

لا .. لا .. وألف لا يا إنسان!!

أبداً لن تكون .. لن تكون ذلك الجبار .. ولن تكون ذلك العملاق.. ولن تكون ذلك المخلوق الصالح الذي أوجدت من أجله الأرض.. لن تكون وفي نفسك الغرور.. الخيلاء.. البطش.. وامتهان حق الضعفاء من البشر!

إنك إنسان .. إنسان (حي) متى حكمك الحب.. الرحمة.. الإيثار.. العدالة.. وحب الخير من أجل البشر..
متى قدست الحياة الإنسانية الرحيمة.. أيها الإنسان!



غول أو مشكلة الزواج

(يانصيب) ..

هكذا لذَّ لي أن أسمِّيه يا صديقي «الكجا» .

يانصيب . و بالحرف الواحد . فهو إقدام على مجهول . ليس إقداماً فقط ، ولكنه شراء . دفع ثمن باهظ ، وقيمة لمجهول . ولنفسّر هذا :

فالشاب مُقْدم على زواج . وغير الشاب أيضاً مُقْدم على زواج . وفي (الزواج) تكمن مأساة (اليانصيب) .

لم ترها .. ولن تراها .. وإنما سيسوقك الخطر. سيذهب بك ذلك النصيب . أو قل إن شئت سيطوح بك ، فإذا بك تحلم بالحقيقة .. وإذا بك تحقق الأحلام الغامضة .. وإذا بتلك الزوجة تضم إلى جوارك تقاسمك أنفاسك .. معاشك .. بل وحياتك كلها .

ولم تكن الزوجة بذلك البعير، ولا بتلك الخراف ، حين لا يعجبك منها المظهر.. أو حين لا يعجبك منها المخبر، تسوقها إلى السوق. تأخذ فيها الثمن الذي دفعت ، لتبحث بذلك الثمن عن بعير أو عن خراف أخر، تجد فيها المظهر، أو تجد فيها المخبر.. لا . لم تكن الزوجة بذلك البعير ولا بتلك الخراف ، وإنما هي (إنسان) ستساق إليك وهي تحمل نحوك حباً . وأملاً . وحقيقة .

حبًّا في أن تعيش .. تعيش هي إلى جوارك عمرها كله . وحبها كله .

وأملاً في أن ترعاك كما ترعاها . ترعاك كزوج وأب . وترعاها أنت كزوجة وكأم .

وحقيقة. حقيقة في أن يمتد بها العمر لتكون أمًّا لأولادك تسعد إلى جوارهم وإلى جوارك أنت. وهكذا و بتلك الصور.. و بأكثر من تلك الصور، تساق إليك حواء.. حواء الغامضة فوق مركب الأيام.

وتأتي أنت .. أنت بنزعاتك وحبك. إنك تطمع في تلك الحوراء.. الهادئة.. الطيّعة.. والمدركة لمسؤولياتها الزوجية. والتربو ية. تطمع في ذلك كله.. تطمع في أن يجسد لك الجمال، إلى جانب الهدوء والطاعة والاطلاع، فتمد قدميك. وتمد معها أملك ونقودك في قوة وإصرار أكثر مما لو كنت تساق، وإذا بك تقرع باب هذا و باب ذاك. تسأل الشيخ. وتسأل غير الشيخ. تخطب من هذا وذاك كريمته أو أخته.. ولمن؟؟ لك أنت. وكيف لا يكون ذلك وقد قال لك عنها (أبوك): (إنها ملك صغير تفيض خفّة وأنوثة)

وقالت لك عنها أمك: (إنها إنسانة. ربّة بيت. وفينوس الأسرة في صورها وتقاطيعها.)

أما خالتك . أما عمتك. وأما جدتك. وأما أقرب قر يب لك فإن لتلك الزوجة التي وقع عليها اختيارهن لك ألف معنى ومعنى، إلا أنها جميعها معانٍ تصور لك الجمال، وتجسد لك الكمال، وتبني أمام عينيك هيكل السعادة، وصومعة الحب، ومعقل الأحلام.

ومن أين لك يا «كجا» الا تستشيط فرحة وجنوناً. من أين لك وقد أجمع أبوك كما أجمعت أمك. وأجمعت خالتك كما أجمعت عمتك وجدتك وأقرب قر يب لك على أن زوجتك.. زوجتك المنتظرة هي أمنية كل إنسان: جمالاً، وطباعاً، واطلاعاً.

إنك تركض كما يركض أي إنسان أدرك كنزاً وخاف أن يسبقه إليه أحد. تركض في جنون وإرهاق، حتى لا تكون من نصيب الناس، وحتى لا يتلقفها حظ قبل حظك. وتجدّ وتكدّ وقد ضمتك ظروفك الغامضة الرهيبة.

وقد ضمتك ظروفها الغامضة الرهيبة أيضاً. وقد ضمتك إلى جوار والدها وولي أمرها تخطبها منه. وإذا بها تسارع إلى حوزتك وإلى أحضانك بعد يوم أو أكثر من يوم. وقبل أن تشهدها، قبل أن تزف إليك تستشفك الأحلام بليالي شهرزاد. بأمسيات كليوباترا. بل وبهمسات الجندول المختال في كبرياء فوق صفحة الدانوب الأزرق عند السحر.

إنك ستعيش في حلم.. حلم مغرق في السعادة ولا شك.. لن تؤمن فيه بدموع. ولن تؤمن معه بآهات ولا بذكريات إلا ما كان منها حولك، يعمر حبك إلى جوارها. و يعمر قلبك إلى جانب قلبها. و يعمر غرسكما إلى جوار الساقية الزاحفة على صدر الحياة.

هكذا سيبدو لك يا «كجا» قبل أن تزف إليك (حوراؤك) على حد قول أمك، وعلى حد قول أهلك أو غير أهلك، لأنهم كما يقولون (رأوها) ولأنهم سمعوا عنها. أو لأنهم أحبّوها هم، وقاسوا بحبهم حبك. فنصبوا لك الشراك دون قصد.. وحين تحتضنك الحقيقة لا تلبث إلا أن تغلق قلبك. قلبك المفتوح للحب. وإلا أن تغلق عينيك.. بصرك المفتوح للجمال. أما قدماك. وأما تهربك من الحقيقة.. الحقيقة السوداء، فإنك لن تلبث لحظة واحدة. وإنما ستجري. ستركض وكأنما يسوقك إعصار. وكأنما يتتبع خطاك غول ناقم.

إنك لا تود بعد الذي كان أن تشهد بيتك بعد تلك الليلة. لا تود أن يضمك إليها نصيب مظلوم. ولا أن تجمعك وإياها رغبة، ولا أن يوفق بينكما نصيب.. أعني (يا نصيب.)

فمن جمالها ستعود بالنكسة.
ومن طباعها ستخرج بالنكسة.
ومن مؤهلاتها ستتزود بالنكسة أيضاً.

ولن تجد لأمك .. لأبيك .. ولغير أمك وأبيك من جواب ـبعد الذي كان ـ غير إيماءة مبتورة مجذوذة المعنى. وغير عبارة تقليدية هي كل ما ستطرق أذنيك..

(إن شاء الله تكفيريا وليدي. والخليفة في الباقي.)
ولِمَ التكفير؟

نعم لِمَ الْمُكفِّر.؟ إنني لم أجرم وإنما أُجْرِمَ غيري.. وفقط دفعت الثمن غالياً من عرقي وكدّي.. ومن سعادتي التي أودعتها أعماق التراب..

وقد لا تكون يا «كجا» قد لا تكون مليونيراً.. إذاً لكان في حكم الهين أن تعيد بناء صومعتك من جديد.

وقد لا تكون ميسور الحال.. إذاً لكان في الإمكان أن تعيد لنفسك الكرّة على ضوء من عقلك.. من درايتك.. ومن نطق عينيك..

قد تكون عاملاً في شركة (الزيت) مثلاً. أو في مؤسسة أخرى تتقاضى الأجر لتصرفه على متطلبات يومك. قد تكون من هذا الطراز، ومهر الزواج يتطلب منك أن توفر له عشرة آلاف. أو ثمانية آلاف دون أن ينقص قرش واحد..

وما الحيلة إذاً وأنت على شفا جرف هار؟!

إنك إن أبقيت عليها حكمت على أمانيك بالموت. على حبك بالاندثار. وعلى قلبك في الاّ يخفق في طرب ونشوة. دائماً سيظل في صمته الثقيل يعد ساعاته أياماً. ويعد أيامه أعواماً. ويعد أعوامه أجيالاً، تقنعها الكآبة والمرارة والحرمان. أما هي فقد احتفظت لحياتها (المظلومة) بألاّ تكون مشردة على الرغم من أنك لا تحبها. إلا أنها في حمايتك. في حصانتك، وفي دارك، ومحسوبة عليك.. تعيش بلا حب.. وبلا أمل في الحب. وإنما في حرمان طويل.. طويل كطول حياتها.

وحين لا تبقي عليها أيها الصديق المجنون ستذكر العشرة الآلاف. أو الثمانية الآلاف. ستذكرها وستبتلع ريقك في إجهاد وغصة.

فهذه العشرة أو الثمانية الآلاف إلى مجهود.. مجهود العشرة أو الثمانية الأعوام. نعم العشرة أو الثمانية ستقضيها بلا زوجة، قابعاً في وحدتك. في جرعاتك. في نصيبك المظلوم. وفي كدّك المتواصل أيضاً.

ثم لا تلبث وأنت في دوامة من أفكارك الثقيلة أن تمسح دمعة في ثقل أيامك. بله عمرك..

ماذا سيكون لو أنني بعد أعوام أو بعد أيام أمكنني الحظ من جمع مهر جديد لعروس جديدة؟ هل سأساق كما تساق البقرة إلى مربطها.؟ وهل ستساق المسكينة.. أقول المسكينة لأنها بريئة لا ذنب لها ـ هل ستساق كما سأساق أنا ليجمعني وإياها نصيب غامض كذلك النصيب الذي دفعت إليه عند أول مرة دون أن أراها؟ دون أن أتطلع إليها، وسأكتفي فقط عن ذلك كله بتلك الترنيمة المبتورة التي يقولها قريب أو بعيد..

(إنها تطرب العين. والغلمان. قمر ليلة خمسة عشر).

لا شك أن هذا هو واقعنا في أساليب الزواج.. واقعنا العريض الذي يصور في أذهاننا مظاهر من الملابسات والتقهقر.

إن الدين يحرم القمار.

إن الدين يحرم (اليانصيب).

إن الدين يحرم أن يباع الغائب دون أن تراه. دون أن تخبره ودون أن تقول وقد شهدته: (قبلت).

وليس أصح ولا أجدى من أن يكون التشريع عادلاً في مقاييسه ونظمه وأحكامه بالنسبة للحياة والأحياء.. لقد سمح رسول الإنسانية صلوات الله وسلامه عليه. سمح بل وأوصى وألحّ في أن يشهد الرجل مرأى زوجته قبل أن تزف إليه وأن يتزوج.

إنني أبحث يا «كجا» في حيرة.. أبحث عن مقاييس واقعنا من الدين بالنسبة لأساليبنا الراهنة في الزواج.. أين هي؟ وهل طبقت؟ وهل هذه الأساليب العجفاء، وتلك الحواجز الشائكة التي تقف حاجزاً بين أن يشهد الرجل -وأعني بذلك الرجل العاقل- أن يشهد مرأى زوجته ولو بصورة سرية ييسره لها ولي أمر تلك الفتاة؟..

وبعد: فإني أشهد تيار الحاضر لشبابنا بل ولشيبنا بدأ يتجه نحو البلاد المجاورة. ناشداً في أحضان تلك البلاد الرحمة.. الملَك الذي يستطيع أن يراه قبل أن يقدم على الزواج به.. قبل أن يشتريه بمجهود أعوامه العشرة أو الثمانية.

فهل أدركت معي أين تكمن المأساة يا «كجا» ؟!!

إنني بمقدار ما ألوم أولئك الذين قذفت بهم الضرورة الملحّة إلى نشدان (النصف الآخر) في ربوع البلاد الشقيقة أو الصديقة إنني بمقدار ما أعتب عليهم وقد تمردوا على أوضاعهم -أوضاعهم العقيمة طبعاً- فكوّنوا بذلك الاتجاه جيوشاً متماوجة من العوانس البريئات في ظلمات بيوتهن.. إنني بمقدار ما أعتب عليهم أمنحهم الحق كل الحق في أن الأساليب الخاطئة كانت هي الدافع والسبب. هي اللعنة الرهيبة التي حالت بينهم وبين ما يشتهون.

إن موكب الحياة يتقدم.

وأحس من حولي وعلى شريط الحاضر. وشريط الأيام المنتظرة أكثر من نبرة موءودة. أكثر من تأوهات وأنين. أكثر من ابتهال مغرق في الدعاء انطلقت به حناجر البريئات ممن قوضنا نحن آمالهن. قضينا على سعادتهن. وعلى حبهن المقيد بقيودنا. وبتحكماتنا. وبحبنا للسيطرة.

وسيأتي اليوم الذي ستضج فيه السماء رحمة بآلاف العوانس المغلوبات على أمرهن.. ومن يدري فقد ينتصر القدر؟

نعم ينتصر ورغم أنف الزمن.

إن غلاء المهر لعنة تقف في طريق النصيب. نصيب المرأة. إن علينا أن ندرك أن المرأة ليست بقرة، وإنما هي (إنسان). إنسان رحيم يحس و يتألم. يسعد و يشقى كأي رجل. فلِمَ هذه الظلامة الحمقاء في حقهن؟

واللعنة الأخرى. اللعنة الكبيرة وهي من نصيب الرجل والمرأة على حد سواء. أن تساق الزوجة إلى الزواج. أن يتزوجها.

وقبل أن يراها. أن يشهد قوامها وملامحها. وكنت أعني أن يهيئ له ولي أمرها الفرصة ليشهدها دون أن تشعر به؛ إذ في ذلك الضمان الكافي لبناء مستقبل عائلي سعيد يغمره الوفاق والحب.

إنني أحس «يا كجا» أنك مظلوم. مظلوم مثلي. ومظلوم مثل أخواتنا وإخوتنا. مظلومون جميعاً، وقد ظلمنا ذلك الفهم المشلول المحنط الذي تقيم عليه أساليب زواجنا الموجع، ومداركنا المقيدة.

وما لم نتدارك بدافع ديني وعقلي سليم أساليبنا المشروعة في الزواج فإن مشكلة مجتمعنا ستنمو وستتطور وستعيد لتاريخنا أخطر نكبة مرت بأحياء.

وأخيراً.. أخيراً: معك لي سؤال. ولمن هذا السؤال؟ إنه باسمي. باسمك. باسم الباكيات الشاكيات. باسم الرجل والمرأة. سؤال واحد نتوجه به إلى علمائنا.. إلى قادة الفكر والدين:

أين هو موقف الدين من مشكلة الزواج؟
و بعبارة أوضح وأصح:

هل يمانع الدين؟ وهل لا يقر الزوج في أن يشهد زوجته قبل الإقدام على الزواج بها؟؟

إن منطق العقل يؤيد ما نحن بصدده من أن في الأفق ضباباً من أخطاء ومغالطات ستجثم على واقعنا بحكم هذه المفاهيم الرعناء.. وسيكون لها آلاف آلاف الضحايا من الشباب ومن الشابات. وقد لا يسلم من و يلاتها

وأخطارها إلا نسبة ضئيلة .. ضئيلة، قد لا تبلغ عشر المعشار من المقدمين على (غول الزواج).

إن التبعة كل التبعة تقع على تلك الطبقة من الآباء المتزمتين ـ أعني بعض الآباء ـ وعلى أولئك الذين يدركون الخطر دون أن يعملوا من أجل درئه وتلافيه شيئاً ..

وأخيراً من يدري ؟ فقد نبتسم جميعاً يا أخي وقد أشرق النور. نور الواقع .. ومات الخطر. ذهب ذلك الغول الذي يهدد كل أعزب وعانس .. نعم من يدري؟ فموكب الحياة، ودستور السماء. ونصرة العدالة أقوى من أن تتخاذل أمام رعونة الإنسان المتردد وأخطائه .. والمسلمون مازالوا بخير ..





فهرست

الموضوع	الصفحة



إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منهـا :

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلا	الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	الأستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	الدكتور محمود محمد صفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	الدكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	الدكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* الحضارة تحدٍّ	الدكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر الزمخشري
* لحظة ضعف	الأستاذ فؤاد صادق مفتي

* الرجولة عماد الخلق الفاضل — الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين ز يدان
* بائع التبغ — الأستاذ حمزة بوقري
* أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الأستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد — الأستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض .. — الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
* عن هذا وذاك — الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
* قصص من سومرست موم — الأستاذ عزيز ضياء
* الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
* فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي

تحت الطبع :

* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* قصص من طاغور — الأستاذ عزيز ضياء
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
* التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
* تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* أيامي .. — الأستاذ أحمد السباعي
* ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز
* مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) — الأستاذ سباعي عثمان
* جسور إلى القمة — الأستاذ عزيز ضياء
* هكذا علمني وردزورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

* عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	الأستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة	الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد	الاستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* خواطر جريئة	الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها	الشيخ حسين باسلامة
* الإسلام في نظر أعلام الغرب	الشيخ حسين باسلامة
* قضايا .. ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
* كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
* ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز	الأستاذ محمد علي مغربي

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	الدكتور فؤاد زهران
	الدكتور عدنان زهران
(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور
	الدكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* مبادىء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للروايات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
* الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
* شعراء التروبادور	الدكتورة مريم البغدادي

تحت الطبع :

* أمراض الأذن والأنف والحنجرة	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
* النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* هندسة النظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبيد الحي رضوان



صدر منها :

* حارس الفندق القديم	الأستاذ صالح إبراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي	الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)	
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	
* تسـالي	الدكتور حسن يوسف نصيف
* مجلة الأحكام الشرعية (دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد ابراهيم أحمد علي
* النفس الإنسانية في القرآن الكريم	الأستاذ ابراهيم سرسيق
* خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
* واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد

صحة العائلة في بلد عربي متطور — الدكتور زهير أحمد السباعي

تحت الطبع :

* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الأستاذ محمد أمين ساعاتي
* القرآن .. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكاندي
* ألــوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطر وموسيقى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — الدكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
* مساء يوم في آذار — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
* النبش في جرح قديم — الأستاذ السيد عبد الرؤوف
* الموت والابتسامة — الأستاذ عبد الله باقازي
* مواسم الشمس المقبلة — الأستاذ محمد علي قدس

رسائل جامعية

تحت الطبع :

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز



لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها :

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتاب للناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

* جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع :

* جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
* حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
* قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.